سمير عبده

التحليل النفسي لشخصية الدكتاتور

منشورات دار حسن ملص

منتدى سور الأزبكية
WWW.BOOKS4ALL.NET

التحليل النفسي لشخصية الدكتاتور

سمير عبكه

التحليل النفسي لشخصية الدكتاتور

حسن

منشورات دار حسن ملص

* التحليل النفسي لشخصية الدكتاتور

* تأليف: سمير عبده

* الطبعة الأولى : تموز ٢٠٠٢

* حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

* الناشر

دار حسن ملص للنشر

دمشق – سوريا- ص. ب ٦١٧٤

هاتف : ٤٤١٩٦٥٣

فاكس : ٤٤٢٨٠٠٥

* التنضيد الضوئي و الإخراج : مشلين حداد

* موافقة وزارة الإعلام رقم ٧١٥٩٦ تاريخ ٢٠٠٢/٣/٢٧

* صورة أرضية الغلاف للرسام اليوغوسلافي دادو
الصورة الاولى من اليمين للرسام الفرنسي مارسيل دوشامب
الصورة الثانية من اليسار للرسام الألماني جورج جروسز

---

* جميع الأفكار و الآراء الواردة في الكتاب تُعبر عن وجهة نظر المؤلف
* في حال أخذ أية مادة من الكتاب يرجى التنويه إلى المصدر

مقدمة

نبتت الطاعة المستمدة من الآلهة من بلاد ما بين النهرين- مهد الحضارات القديمة- حيث الدولة هي الأساس في بناء الطاعة و الخضوع و السلطة، و الفرد هو المسير ضمن هذه المنظومة. و هذا ما جعل الناس، منذ القدم، مشدوهة بحكامها: أهُم من طبيعة إلهية، و على الناس إطاعة هذه السلطة (و بالتالي تسمو إرادتهم على إرادة المحكومين، إذ هم منفذو المشيئة الإلهية، فيما إرادة المحكومين تخضع لهم و تتقيد و تتمدد وفقاً لمشيئتهم). (١)

هذه العلاقة الشاذة جعلت الرومان يطلقون مصطلح (دكتاتور Dictator) على الشخص الذي يتولى جميع السلطات، سواء أكان على الصعيد السياسي أو الاجتماعي أو الديني، و يخضع الغير لسلطته، و يملي أوامره، و يعاقب من يشاء، سواء كان فرداً أم مجموعة أو أمة. و هو ما يفتح عيوننا على أن نستوعب أين دائرة المحرم و المقدس فعلاً. (٢) كيف يضع فرد قبضته على رقبة الشعب بأكمله فيرسم مصيره إلى حين؟ كيف تقع الشعوب في قفص الهزيمة و كيف تتحرر؟ كيف يتحول الإنسان عملياً إلى آله يملك أقدار الناس في أرزاقهم و تسريحهم من وظائفهم؟ في حريتهم و اعتقالهم متى يشاء، في دفعهم إلى الإعدام أو ساحات القتال في صورة قرابين بشرية أو سجنهم حتى الموت.. ألم يقل فرعون (ما علمت لكم من إله غيري) و (ما رأيكم إلا ما أرى و ما أهديكم إلا سبيل الرشاد).

و قد ذهب الكاتب الفرنسي أيتين دى لا بواسيه المتوفي عام ١٥٦٢ في كتاب له بعنوان (العبودية المختارة) (٣) إلى التساؤل كيف أمكن لهذا العدد من الناس، من البلدان، من الأمم، أن يحتملوا أحياناً طاغية واحداً لا يملك من السلطان إلا ما أعطوه و لا من القدرة على الأذى إلا بقدر احتمالهم الأذى منه. و يضيف: إنه لأمر بالغ الخطورة و أدعى إلى الألم منه إلى العجب أن ترى الملايين يخدمون في بؤس و قد غلت أعناقهم دون أن ترغمهم على ذلك قوة أكبر أو ما يبدو قد سحرهم.

١- ثروت بدوي: النظم السياسية دار النهضة العربية – القاهرة ١٩٨٤ ص ١٢٤

٢- صحيفة الشرق الأوسط- لندن ٢٠٠٠/٨/١ خالص جلبي

٣- ايتين دى لا بواسيه: العبودية المختارة ترجمة د. مصطفى صفوان القاهرة ٢٠٠٠ ص ٦٨

إذا تقصينا في ضمير كل إنسان نرى ميول غريزية مكشوفة أو مكتومة للتفوق و السيطرة و القيادة. فإذا توفرت لأي إنسان ظروف موانية و تمادى في ممارسة التجاوز، وهو في مركز السلطة الصغيرة أو الكبيرة، فإنه يتدرج ليصبح عدوانياً و ظالماً، و هي نتيجة حتمية لغياب أو تخاذل الرادع القانوني و الأعراف و التنظيمات الاجتماعية. و تدريجياً يصبح الإنسان العاقل المتواضع مشروع دكتاتور صغير في محيطه العائلي أو عمله أو في بلده حيث الفردية الطاغية و الجبرية المحتومة. مجتمعات التخلف بترتيبها التاريخي بيئة مناسبة للقبول و الرضى بل و الإشادة بعظمة و هيبة المتسلطين، تحوم حولهم حلقات من المتزلفين و المنتفعين المنافقين. قبول جماهير أهل القاع، مستودع البؤس التاريخي المقيم، و ترحيبها أو عدم مبالاتها بهوية الحاكم الجديد الذي يجزل لها الوعود و الآمال العريضة، موقف طبيعي. و خلال فترة يصبح الحاكم الفرد سيداً إقطاعياً يتصرف بشؤون البلد و مصيره. و معزوفات وسائل الإعلام جاهزة بأناشيدها و شعاراتها و مهرجاناتها و حشودها في خداع المتسلطين و المسحوقين معاً.

إن معظم الذين يمارسون التعذيب باسم التهذيب و الإصلاح، أو القتل و الاغتيال باسم تصفية الأعداء و العملاء، معظم الجلادين الذين يمارسون كل ذلك مؤمنون وعن يقين شخصي مخادع بأنهم رسل العدالة و الحكمة و الإخلاص. و بالمقابل تزداد رسوخاً حكمة شائعة في القاعدة بأن القادم الجديد مهما كانت نوعيته هو أفضل من القائم، و في كل تبديل وعود جديدة و آمال و تمنيات!

و الإنسان الذي تحول له دولة الولاء للفرد من حطام بشري مهمل إلى شرطي أو سائق سيارة أو ضابط أو شاعر و صحافي، و حتى لو تم تعيينه مديراً عاماً أو وزيراً أحياناً لا يمكن لهذا الإنسان إلا أن يكون جلاداً على الذين دونه، و مطواعاً متزلفاً للذين جعلوه شيئاً أكبر بكثير من جموح أحلامه. (١)

و الدكتاتور هو الذي يصل إلى الحكم بطريق غير شرعي سواء بالمؤامرات أو الاغتيالات أو القهر أو الغلبة بطريقة ما (و هو يتحكم في شؤون الناس بإرادته لا بإرادتهم، و يحاكمهم بهواه لا بشريعتهم، و يعلم من نفسه أنه الغاصب و المعتدي، فيضع كعب رجله في أفواه الملايين من

١- صحيفة الشرق الأوسط- لندن ٢٠٠٠/٨/١ خالص جلبي مرجع سابق

الناس لسدها عن النطق بالحق، و التداعي لمطالبته). (١)

و يقصد (بتشخيص أو شخصانية السلطة) أن تكون السلطة مودعة أو مجسدة في شخص الحاكم بحيث يصبح الاثنان تعبيراً عن حقيقة واحدة. و هنا لا ينظر إلى السلطة على أنها مؤسسة و إنما شخص. (٢)

و أشد ما يتجلى فيه الحكم الدكتاتوري هو في البلدان النامية، حيث تضعف الديمقراطيات، أو من خلال علاقة الرجل بالمرأة، حيث تسود الأمية و المعرفة و (يصنع) الأبطال من موروثات شعبية و يصبحون (آلهة) في التمجيد و التعظيم و السيطرة على إرادة الناس.

و تتعدد تسميات سلطات الحكم الدكتاتوري من الشمولية إلى السلطة المطلقة إلى الأوتوقراطية (و تعني الحاكم الفرد الذي يجمع جميع الصلاحيات في يده، سواء علناً أو عن طريق الدستور و القوانين).

و يعتمد النظام الدكتاتوري على قواعد و ركائز في تطويع الناس له، فهو يسعى على إغراء المواطنين أن يشيء بعضهم ببعض الآخر، فتنعدم الثقة بينهم، و يدب الخلاف بين الصديق و صديقه، و بين الزوج و زوجته، و تعمل أجهزة المخابرات عملها.

و بإفقار الحكم الدكتاتوري للشعب، ينشغل المواطنون من جهة أخرى في البحث عن لقمة عيشهم، فلا يجدون من الوقت ما يتمكنون فيه من التآمر على حكم الدكتاتور.

و يسخر الدكتاتور الناس و يستعبدهم و يصب نزواته عليهم و يلجم حريتهم دون مساءلة أو حساب، مع إضفاء ألقاب الحكمة و البطولة و الخوارق إلى شخصه، لا يتسع المجال لتعدادها، فلكل دكتاتور أوصاف خاصة به، مع عشرات الأوسمة التي لا تتسع سترته لها.

كما نرى في شخصية الدكتاتور الصمت الداخلي الذي يحبس الأفكار العميقة، خوف البوح بها، و هذا ما يجعل الأفكار تتناهبه. و يتوجس الأخطار التي تحيط به، فيدقق بخلفيات حاشيته

١- عبد الرحمن الكواكبي. طبائع الاستبداد و مصارع الاستعباد في (الأعمال الكاملة لعبد الرحمن الكواكبي) تحقيق د. محمد عماره الهيئة المصرية العامة للكتاب- القاهرة ١٩٧٠ ص ٣٤٠

2- Lester Sellgman (Leadership, Political Aspects) in: International encyclopedia of the social sciences, 19, 8 Vol P. 108

و المقربين إليه، و يحصى أنفاسهم.

و حين تشتد أساليب الاضطهاد التي تتسم بها الدول الدكتاتورية تزداد الصعوبة في أي محاولة تبذل من الخارج لتغيير أساطين الميكيافيلية أو التغلب عليهم. و من أساليب الاضطهاد التي نعنيها التجسس العام و السخرة و التشريد و التخريب الجماعي. و لكن أساطين الميكافيلية لا يمتلكون في ذاتهم قوة أبدية، و ما جهاز العنف الضخم الذي يقيمونه إلا دليل على الضعف الإنساني في ذاتهم. و إن هدم حرية الإنسان و تحطيم ضميره، بما يشيعه ذلك من الخوف و عدم الاستقرار في كل مكان، إنما هو نوع من التحطيم الذاتي في الكيان السياسي.

و حتى يتم إزاحة الدكتاتور يجب أن يتحد الشعب ضده و يتجاوز خلافاته و يعي أن عدوه هو هذا الشخص القابض على رقابه، و أن الناس أخوة مهما اختلفوا مع بعضهم البعض، و أن الثقة يجب أن تسود بينهم، و لا يخونون بعضهم البعض.

* * *

يحوي هذا الكتاب بعد المقدمة على الفصول التالية:

١- من السلطة السياسية إلى الدكتاتورية

بما أن السلطة هي قوة ضاغطة داخلية أو خارجية المصدر، فهي تعطل الموقف العقلاني و حالة النزول عند إرادة تعلو على السلطة العقلانية، و تفرض على الإنسان سلوكاً محدداً لا مجال لنقاشه.

و توصيف الشخصية السياسية لها أكثر من تعريف، ربما كانت التنظيم الدينامي في الفرد، و بالمفهوم السياسي هي القوة التي بواسطتها نستطيع أن نجبر الآخرين على إطاعتنا، بينما السلطة هي الحق في أن توجه الآخرين و نأمرهم بالاستماع إليك و طاعتك. و تذهب السلطة السياسية من الديمقراطية إلى الدكتاتورية حيث يصعد الدكتاتوريون الدمويون قوتهم من العامة و الأغلبية التي تعتمد على الحماس و العواطف بغض النظر عن المنطق. إننا أحياناً نصل إلى الدكتاتورية عن طريق الديمقراطية و تمركز الفرد فيها أم حزب معين، حيث نرى بنية شاملة تقنية- بيروقراطية أو نزلة شمولية مركزية.

٢- سمات شخصية الدكتاتور

أهم سمات شخصية الدكتاتور التصلب في الرأي، حيث يكون للدكتاتور سلوك سيكوباتي و ما يحدثه من أضرار تتصل بأفراد المجتمع، مع توصيفه أحياناً بالشخصية الكاريزمية للتغطية على أفعاله الشاذة. و يعتبر التصلب في شخصية الدكتاتور نسق منظم من الاستجابات تؤدي كلها أو صممت لكي تؤدي سلوكاً معيناً، و قد يكون النسق غير هام و لا يستمر طويلاً.

و ثاني سمات شخصية الدكتاتور النرجسية، حيث يسخر وسائل الإعلام للإشادة به و تعظيمه و تكبير صورته لدى الرأي العام و ذكره في كل المناسبات و وضع صوره و تماثيله في كل مكان.

٣- أمراض شخصية الدكتاتور

تتضارب أمراض شخصية الدكتاتور من البسيطة إلى مرحلة الجنون، و من أهم مراحلها حين يصاب بالبرانويا أو جنون العظمة، و هذا المرض يصاب به الدكتاتور كما يصاب به العبقري حيث يُصغّر الدنيا و يضع نفسه فوق الكل فتغدو تصرفاته غير منطقية.

و التحليل النفسي لشخصية الدكتاتور يذهب إلى أنه يصاب بحالة من الخوف تكمن داخل نفسه، و أن الغطرسة و الجبروت الظاهري يعكس الكم الهائل من الخوف و الفزع المستتر، و هنا يبدو جلياً درجة الانشقاق و التمزق التي يعيشها الدكتاتور و التي تنذر و تنبئ بالانهيار النفسي المرتقب في أية لحظة.

و هذا التوق الذي لا حدود له للوصول إلى دكتاتورية السلطة يعزى إلى الطفولة المحرمة من الحب الأمومي، أو إلى تعويض في المكانة الاجتماعية أو الجسمية أو الطبقية التي ينتمي إليها.

٤- المرأة و دكتاتورية الرجل

اختصرنا في الاستشهاد بالدكتاتور على الناحية السياسية و خصصنا هذا الفصل للتحدث عن المرأة و دكتاتورية الرجل، مع أن هناك دكتاتورية أخرى- تجنبنا الخوض بها- هي دكتاتورية بعض رجال الدين عبر التاريخ.

و قد جاءت دكتاتورية الرجل على المرأة بحكم الوضع القانوني له و ذلك طوال حقب التاريخ، حيث النظرة الدونية للمرأة من خلال الاستشهاد بكثير من المراجع إلى تهميش دور

المرأة ، حيث بقيت دكتاتورية قائمة لها ثوابتها و أركانها.

٥- شخصيات بارانوية

لإعطاء شهادات حية لما تناولناه أفردنا هذا الفصل للتحدث عن بعض الشخصيات البارانوية، و الترتيب جاء عشوائياً كما كتب، متناولين المتنبي من القدماء، و الفيلسوف المعاصر عبد الرحمن البدوي من المعاصرين، مع الفنان العالمي سلفادور دالي، إلى ابن خلدون الذي نادراً ما درس كشخصية بارانوية- على حسب إطلاعنا- إلى أن تناولنا الدكتاتور موسوليني الذي كان دكتاتوراً سياسياً و بارانوياً ظاهراً للعيان من خلال تصرفاته.

٦- الدكتاتورية و سادية التعذيب

و هو آخر فصل أوردنا به نماذج من الثورة الفرنسية و طائفة الدكتاتورية إلى الإمبراطور أوغسطس إلى أبو جعفر السفاح، إلى شخصية دكتاتورية ظريفة هو جان فيدبل بوكاسا الذي عرف أخباره من كان من جيلنا، إلى عيدي أمين دكتاتور أوغندا الشرس و المشاكس، إلى شاعر حمص ديك الجن، إلى نيرون طاغية روما، إلى الإمبراطور الروماني كومودوس.

و في جميع الشخصيات التي عرضنا لها حاولنا أن نضع تحليلاً نفسياً لتصرفاتها البارانوية و الدكتاتورية.

* * *

يبقى أن نشير إلى أن موضوعنا هو شخصية الدكتاتور، و لكن هذا الشخص لا يأتي من الفراغ، فهناك الصف الثاني الذي يسانده، مع بعض المثقفين، حيث المثقف جزء من توليفة السلطة السياسية، و السلطة السياسية حتى عندما تقمع حيز الثقافة أو مثقفاً بصفته أو بعينه، فإنها تفعل ذلك بناء على تبرير فعلة مثقف آخر صنفاً أو عيناً

و يرى البعض أن الجوقة التي تطبل للدكتاتور، مسؤولة هي الأخرى، عن أعمال الدكتاتور بقدر الموقع الذي هي فيه، حتى أن أحد الكتاب السعوديين قال في ذلك:

ليس من مفارقة للصواب القول: إن جمال عبد الناصر لم يقتل سيد قطب و شهدي عطية الشافعي، بل إن الذي قتلهما هو محمد حسنين هيكل، و يمكن للمرء أن يضيف للسيد هيكل

أسماء أخرى كصالح جودت و فكري أباظة و عبد القادر حاتم و أحمد بهاء الدين و حتى لطفي الخولي و غالي شكري في مرحلة مجلة (الطليعة) و القائمة المعلقة على جدار القمع طويلة. (١)

لقد حاولت، في هذا الكتاب، أن أتناول شخصية الدكتاتور، دون أن أعني بها أحداً على وجه التخصيص، و في كتب سابقة لي تناولت شخصيات سياسية عربية كثيرة بالتحليل النفسي، كما تناولت في غيرها أسماء مجهولة كتحليلي للانتهازية و الاستخبارات.

و في الأخير أقدم الشكر أولاً و آخراً إلى القارئ العربي الذي رافقني في دراساتي النفسية متمنياً له التوفيق و الاستزادة و التعمق في ثقافته النفسية.

سمير عبده

ص.ب ٩١٤ دمشق

١- صحيفة الشرق الأوسط- لندن ٢٠٠٠/٢/٢٩ عبد المحسن العكاس

من السلطة السياسية إلى الدكتاتورية

السلطة هي قوة ضاغطة داخلية أو خارجية المصدر، تعطل الموقف العقلاني. فهي حالة النزول عند إرادة تعلو على السلطة العقلانية، و تفرض على الإنسان سلوكاً محدداً لا مجال لنقاشه. إن التفكير و السلوك المرتكز على العقل في اختياره الحر هما نتيجة جهد إنساني خاص بالفرد المفكر، و هو نتيجة لذلك سلوك حر و إرادة متحررة.

و الاختيار الحر غير ثابت و قابل للتصحيح و التعديل اعتماداً على الحجة و الإقناع. وتبدأ السلطات التقليدية في مجتمعاتنا بالروابط الأسرية و الطائفية و التقليد و الإتباع، و هذه الحلقات المتسلسلة تفرض قواعد سلوكية و تعطل و تمنع حرية العقل في اختياره، فالنقل سلطة، و العقل معارضة. النقل أخذ و قبول، و العقل رفض و تمرد، يحتاج النقل إلى سلطة تفسره كما تراه، و العقل لا يعتمد إلا على نفسه.

و يعاني التفكير العقلاني في مجتمعاتنا من اتجاهات تزداد شراسة في القمع، تريد تعطيل أو إلغاء وجوده، زاعمة أنها إنما تعمل ذلك لحساب السلطة التي تعرف كل شيء، و هي الوصية الأزلية على العقل القاصر دائماً، فالسلطة الدينية و السلطة السياسية و السلطة التقليدية بالأعراف و العادات... جميع هذه السلطات، أو كل منها على حدة قادرة على تدبير أمور الناس بحسب مستوياتهم، فهي تفكر و تقرر بديلاً عنهم. و حين يستمر تعطيل العقل زمناً طويلاً يعتاد الناس إلغاء عقولهم، و تفقد العقول العاطلة عن العمل قدرتها على العمل و التحرر. (١)

هكذا هي السلطة في كل زمان و مكان، تمارس وفق الأجواء التي تستطيع أن تسير عليها.

و يعتبر مصطلح (القوة الاجتماعية) المصطلح المركزي لكل علوم السياسة، و يستعمل للدلالة على مقدرة شخص أو مجموعة من الأشخاص على تحوير سلوك الآخرين و تعديله لتحقيق نتائج مقصودة أو متوقعة، حتى و لو كان ذلك خلافاً لرغبتهم أو رغم مقاومتهم. (٢)

١- بشير العظمة: جبل الهزيمة بين الوحدة و الانفصال رياض الريس للكتب و النشر - لندن ١٩٩١ ص ٢٦٠

2- dennis Hume Wrong : Power ... its forms, Based and Uses, Key concept in the Social Science (Oxford): Blackwell, 1979) P. P 2 and 21-22

و من خصائص علاقات القوة (التي تقوم في مختلف مجالات الحياة كعملية اجتماعية دينامية):

أ- الاتساع إذا كان عدد الأشخاص المطلوب تعديل سلوكهم كبيراً.

ب- الشمول إذا كان الشخص المالك للقوة يملك بدائل أو أفعالاً كثيرة لتعديل سلوك الآخرين.

ج- التعمق إذا كان الشخص المالك للقوة يملك بدائل أو أفعالاً كثيرة لتعديل سلوك الآخرين. (١)

أما أشكال القوة الاجتماعية فهي:

أ- القهر (Force) أو القوة الجبرية التي يمكن أن تكون نفسية أو مادية- عنيفة أو غير عنيفة.

ب- الهيمنة (Dominance) عن طريق التلاعب (Manipulation) بالأشخاص أو الموارد أو عن طريق الإقناع (Persuasion).

ج- السلطة (Authority) و هي القوة التي تتخذ شكل إصدار الأوامر و النواهي (Commands) بحيث تنجح في جعل الآخرين يلتزمون بها.

و يمكن أن تكون السلطة شرعية (متفق عليها) بالعرف أو القانون، و في أحوال أخرى يمكن أن تكون السلطة (أو القوة على إصدار الأوامر و النواهي) غير شرعية و إنما قسرية (Coercive) أو (Induced) بالإغراء، و الإغواء، أو شخصية كما في سلطة الأب أو الخبير، طالما بقيت مأسسة، أي ضمن الترتيبات الاجتماعية المتصلة بالقيم و المعايير السائدة.

إن علاقات القوة بشكل السلطة هي علاقة الحاكم بالمحكوم، و لذلك تجسد الدولة السلطة في المجتمع. (٢)

و هذا التصور لعنصر السلطة، و هو الموضوع الأساسي لعلم السياسة، ليس اكتشافاً حديثاً، فقد كان أفلاطون يصر على هذه النقطة و في وقت قريب منا كان مكيافيلي يشبه السياسة بالإكراه. إن فائدة نظرية السلطة تكمن في أنها تتعلق بالعنصر الدينامي: النشاط أو الجهد المبذ ول

1- Bertrand De Jowessel (Athority: The Efficient Impercative) in: Carl Joachim Friedrich, ed, authority, nomos, 1 c Cambridge, mass: Harvard University press 1958) P 160

2- Robert Nozich Anarchy: State and Utopia (New York: Basic Books, 1973

منتدى سور الأزبكية
WWW.BOOKS4ALL.NET

من أجل الإكراه والتأثير، في حين أو وصف مؤسسة ما يبقى ساكناً.

و إذا لم تكن السلطة الموضوع الوحيد لعلم السياسة فهي قسم أساسي منه، و إن لم يوجد لها تعريف غير معترض عليه، فإن بالإمكان تحيد خصائصها على الأقل. فهناك أولاً وظيفتها في الضبط الاجتماعي. إن السلطة ضرورية و هي تتعزز بفضل التباينات التي تهدف السلطة إلى النضال ضدها و التي تسوغ وجود هذه السلطة، و من هنا يأتي غموضها. ففي مجتمع لا صراعات فيه لن تكون السلطة ذات فائدة. إن ج. بالا نديبه، يضيف خصيصة أخرى هامة هي: القداسة، الحاضرة دائماً و إن كانت تظهر على درجات متفاوتة تبعاً للمجتمعات.

توظيف المفهوم الشخصية السياسية

عرف عدد كبير من المؤلفين الشخصية بطريقة إجرائية، أي تبعاً للأساليب التي يستخدمونها في معالجتها. و قد ذكر عالم النفس ألبورت Allport أكثر من خمسين تعريفاً مختلفاً للشخصية، و هذا التعدد للتعريفات يوحي بعدم الاطمئنان للمفهوم.

و من هنا تأتي أهمية هذه التعريفات، مثل ما ذهب إليه (كاتل) حين عرفها بأنها (ما يتيح توقع ما سيفعله فرد في موقف معين)، كما عرفت الشخصية أيضاً بأنها (التنظيم الدينامي لمظاهر الفرد الإدراكية و العاطفية و الإرادية أو النزوعية و العضوية و التشكلية).

و التعريف الذي يعطيه (ألبورت) عن الشخصية هو مثال جيد على ذلك: (إن الشخصية هي التنظيم الدينامي في الفرد، للنظم النفسية التي تحدد تكيفاته الخاصة إزاء الوسط). أو أن نقول إن الشخصية هي المفهوم الذي يمكننا عن طريقه أن نربط بمركز، سلسلة من الأفعال و أنواع السلوك و التصرفات، باعتبارها مجموعاً مركباً من قسم فطري و قسم مكتسب، و يتيح هذا الكل المنظم و المدرج عمليات تكيف أصيلة و مميزة لهذا المجموع.

و بسبب الأصول الطبية النفسية للدراسات حول الشخصية و لنوعية الموضوع البشري الخاضع عامة للملاحظة، تحلل سمات الشخصية و عواملها بشكل دائم تقريباً تبعاً لعامل فقدان التوازن الذي تمثله، من حيث عوامل الحصر النفسي و أسباب العقدة النفسية و آليات الدفاع. وتميل النظرية السلوكية المتطرفة جداً إلى إنكار البنية الدائمة للشخصية بصفتها التي هي عليها. إن ما يدوم من وجهة نظر السلوكية، هو العادة التي نشأت من استجابة إلى ضغط اجتماعي. أما نظرية

الوسط فتعرف الشخصية بأنها (جملة من الواقعات المتعايشة، المتصورة بصفتها مترابطة ترابطاً متبادلاً). و مفهوم الحقل يقدم ميزة تسهيل الدراسة الموضوعية للأفراد مع مراعاة (قوة الموقف) الذي يوجد الأفراد فيه، أي مراعاة العوامل الداخلية و الخارجية معاً.

و هناك ثلاثة مفاهيم أساسية تشير إلى الشخصية القومية و هي: البناء الأساسي للشخصية و الشخصية المنوالية و الطابع الاجتماعي:

١- البناء الأساسي للشخصية: يرتبط هذا المفهوم باسم كاردنر الذي استخدمه في كتابه المعروف (الفرد و مجتمعه) الذي صدر في نيويورك عام ١٩٣٦. و يقصد كاردنر بالبناء الأساسي للشخصية (تشكيل الشخصية الذي يشترك فيه غالبية أعضاء المجتمع نتيجة للخبرات التي اكتسبوها معاً).

٢- الشخصية المنوالية: استخدم هذا المصطلح رالف لنتون لكي يشير إلى (نمط الشخصية الذي يظهر بأكبر قدر من التكرار بين مختلف أنماط الشخصية في مجتمع محدد).

٣- الطابع الاجتماعي: و يرتبط هذا المفهوم باسم عالم النفس و الفيلسوف الأمريكي المعروف أريك فروم. و الطابع الاجتماعي عنده هو (النواة التي ينهض على أساسها بناء الطابع الذي يشترك فيه غالبية الأفراد الذين ينتمون إلى ثقافة ما، ذلك بالمقابلة مع الطابع الفردي الذي يختلف بصدده الأفراد- الذين ينتمون إلى نفس الثقافة – عن بعضهم بعضاً. (١)

أما رجل السياسة فلا نستطيع أن نقول إنه لا يخاف الموت و لكنه يخاف من فقدان القوة التي تعتبر مونا بالنسبة له، فرجل السياسة يعيش لكي يصل إلى الحكم و إلى القوة، إذن رجل السياسة محكوم عليه بالموت إذا فقد سلطته و هو في صراع دائم للحفاظ عليها.

و لكن حين لا ينظر إلى خبرات الماضي و لا إلى تطلعات مستقبلية فهذا ضد قانون العقل البشري.. فرجل السياسة يجب أن تكون له استراتيجية طويلة المدى للمستقبل و معتمدة على خبراته السابقة و قدراته الحالية، و لكن عندما يصيب الإنسان نوع من الغرور و الشمولية يتناسى في

١- السيد يسين الشخصية العربية بين المفهوم الإسرائيلي و المفهوم العربي مركز الدراسات السياسية و الاستراتيجية- القاهرة ١٩٧٣ ص ١٢٠

هذه الفترة خبرات الماضي و التاريخ، و نعتقد أنه فريد من نوعه و أنه غير مكرر و يعامل ذاته على أنه نصف إله و لا يعتقد في احتمال انتهاء قوته أو موته و هنا تكون الكارثة .

السلطة السياسية

إن السلطة Authority و القوة Power أمران مختلفان، فالقوة هي التي بواسطتها تستطيع أن تجبر الآخرين على إطاعتك، بينما السلطة هي الحق في أن توجه الآخرين و تأمرهم بالاستماع إليك و طاعتك. و السلطة تتطلب قوة، أما القوة بلا سلطة فظلم و استبداد. (١)

و السياسة ممارسة للحياة على مستويات مختلفة، و من هنا كان كل الناس سياسيين على نحو أو آخر، حتى أولئك الذين يقرون أنهم لا يفهمون في السياسة أو لا يهتمون بها، فليس من الضروري أن يكون المرء عضواً في حزب، أو دارساً لعلم السياسة و المذاهب السياسية أو كاتباً سياسياً في الصحف و المجلات حتى تنعقد الصلة بينه و بين السياسة، فإن مجرد أن يكون للمرء عمل يلتزم و يؤديه يكفي لأن يؤكد ارتباطه بالسياسة، لأن أي عمل يقوم به الفرد لا بد أن يكون له وقعه و مغزاه بالنسبة إلى المجتمع، سواء أكان في صالح الجماعة أو على النقيض من ذلك، فإذا قلنا إنه لا سياسة بلا مجتمع فبالقدر نفسه يصح لنا أن نقول إنه لا مجتمع بلا سياسة. (٢)

إن تنوع الموضوعات التي يعالجها علم السياسة، و عدم تجانسها دفعا طويلاً إلى الشك في هذه الإمكانات، و من هنا كان التأكيد أنه لا وجود لعلم سياسة بل فقط لعلوم سياسية. و في هذه الحالة نفرغ علم السياسة من محتواه لصالح العالم الأكثر تنظيماً الذي يتصدى له: الجغرافيا السياسية، و الاقتصاد السياسي و التاريخ السياسي. إن بعض الكتاب لم يقبلوا بوجود علم سياسة، بل بوجود وجهة نظر لعلم السياسة متممة للحق الدستوري.

و تتطلب دراسة السلطة ملاحظة الآليات السياسية التي تؤخذ السلطة بها و تمارس، ومنطقة عمل الحكومات أو تدخلها، كما يمكن أن تحددها الأنظمة الموجودة، و مواقف الجسم

1- Bertrand de Jowessel: Power, The natural History of its Growth (London- Hutchinson 1949) ed P . 42

٢- مجلة آخر ساعة- القاهرة العدد ٣١٤١ ٤ يناير ١٩٩٥ حوار مع د. عز الدين اسماعيل أجراه مأمون غريب

الاجتماعي و ردود أفعاله، أي أشكال السلطة و امتدادها و حدودها، و كذلك أساليب عمل الحكومة أو وسائل ممارسة السلطة.

من الديمقراطية إلى الدكتاتورية

ليست الديمقراطية شكلاً لنظام الحكم، و لكنها أيضاً بحث في طبيعة الدولة. و من هنا ضرورة التمييز بين الديمقراطية كمبدأ، و بين الأشكال الإجرائية لتطبيق هذا المبدأ، و هي أشكال تختلف باختلاف ظروف كل مجتمع و مرحلة تطوره. ((فالديمقراطية كمبدأ تقوم على فكرة (المساواة) بين المواطنين، و لكن حتى هذه الفكرة المبسطة (المساواة) تثير إشكاليات حول أي مجال تتم فيه هذه المساواة: هل هي مساواة سياسية فقط، أو مساواة اجتماعية فقط، أو مساواة في كلا المجالين)).(١)

و علاقات الحكام بالمحكومين هي ذات اتجاه مزدوج. فمن جهة تؤثر السلطة في الرأي إما بقراراتها و إما بالإقناع و بالدعاوى التي تعزز و تستعمل غالباً مواقف جماعية موجودة قبلاً أو محتملة. ومن جهة أخرى يؤثر رأي المحكومين بدوره في السلطة، إما ضمن إطار أنظمة المؤسسات، كنظام الانتخابات و إما بالضبط المباشر الذي يمارسه عليها. و لكن الرأي ذاته لا يصدر عن معرفة علمية و موضوعية للمشكلات، إنه يخضع لدوافع، أو لأهواء أو لمصالح متناقضة غالباً. لقد تطورت دراسة الرأي على مستوى سطحي بفضل تقنية الاستقصاءات. و العلاقات بين الحكام و المحكومين، إن كان عليها أن تدرس ضمن إطار المؤسسات التي تحكمها، فلا يمكنها إذاً أن تكون مدركة و مقدرة كلياً إلا في ضوء الحوافز التي تواجهها و التي تقدمها دراسات علم النفس السياسي.

إن غالبية الشعب تختار و تنتخب حسب العواطف أكثر منها حسب المنطق، و المعادلة التي نقولها في الديمقراطية إن ٦٠ % من مجموع الشعب متوسط الذكاء و أن ٢٠% أكثر من المتوسط و ٢٠% أقل من المتوسط، أي أن ٨٠ % من الشعب متوسطو الذكاء و أقل من المتوسط، و هؤلاء لهم حق الاختيار و الانتخاب مثل الأذكياء. و لكن الغالبية تكون للثمانين في المئة، و لذا فعملية الديمقراطية تساوي بين اختيار عالم أو مثقف كبير في موته مع أي متخلف عقلي في موته والثمانين في المئة سيتأثرون بالكاريزما. فمن النادر أن عالماً في الطبيعة أو الطب يكون له تأثير

١- مجموعة مؤلفين: أزمة الديمقراطية في الوطن العربي مركز دراسات الوحدة العربية- بيروت ١٩٨٤ ص ١٥

على الجماهير. و لذا عندما نقول إن الشعوب قوية أو ضعيفة يجب أن نعلم أن ٨٠ % من أي شعب سهل الانقياد قابل للإيحاء، و يمكن أن يدوس ٢٠ % من الأذكياء الذين يصبحون أقلية، و لذا رأينا عبر التاريخ باستمرار في الثورات التخلص بالإعدام أو الاعتقال أو النفي من أذكياء البلد حتى تتاح الفرصة لهؤلاء المضللين أن يستولوا على السلطة.

و لنا مثل في الثورة الفرنسية و في كل الانقلابات العسكرية في كل بلاد العالم.

إذن يستمد هؤلاء القادة الدكتاتوريون الدمويون قوتهم من العامة و الأغلبية التي تعتمد على الحماس و العواطف بغض النظر عن المنطق، و كلمة باسم الشعب تستهلك لمصلحة الحاكم، فالديمقراطي يقول: باسم الشعب، و الرأسمالي و النازي و الفاشي بل الزعيم الديني و هم يعتمدون على هؤلاء الذين يستطيعون السيطرة عليهم و يصفقون لهم في كل مكان.

و إذا نظرنا إلى مآسي التاريخ نجد أن القيادات التي قامت بحروب عالمية تتميز بالجاذبية الجماهيرية و تحريك عواطف الشعب و حماسه و نفخ النعرة القومية إلى حد العمى النفسي.

و للأسف، يتكرر هذا عبر التاريخ، فالديمقراطية ستجعل الحاكم ليس أكثرهم كفاءة و لكن أكثرهم قدرة على إقناع ٨٠ %، إما عن طريق القوة العسكرية أو إيحاء عن طريق تضليل الشعوب. و لكن ما هو البديل، أيحكم العشرون في المئة و يعاملون ٨٠ % كالعبيد و يكونون هم الأسياد.

إن الذكاء هو عطاء الله و لذا لا نستطيع أن نحرم هؤلاء من الإحساس بالآدمية، و لذا يجب أن تستمر الديمقراطية حتى و إن كان انتخابهم لهذا الفرد لن يكون أحسن اختياراً حيث إنه في الديمقراطية يكون معه صفوة المثقفين و العلماء و البرلمانات، فإذاً لا خوف على الجميع، و لكن الشمولية و الدكتاتورية تؤدي إلى نكبة و مصائب للبلد.

ففي الديمقراطية معروف أن الحاكم ليس أكفأ الناس، و لكن من حوله هم الأكفاء، على أن في الشمولية تكون المصيبة أكبر فيؤله الحاكم و يصبح الأوحد و هو ليس الأكفأ، و إذاً، أن نقول إن الشعب غير مستعد للديمقراطية فإن هذه هي الخطورة، فكل المآسي التي حدثت من حكام في أي بلد في العالم كانت لأنهم انفردوا بالحكم الشمولي، فطالما يوجد من يقول لا، فتكون هناك فرصة للنقد الذاتي و عدم تضخم الأنا و من ثم تكون الدولة في حالة ازدهار و تقدم.

إن القيادة الحقيقية هي القدرة على اختيار من حولك و يُعطى دائماً المثل برسول الله أن قيادته تنبعث من اختياره للصحابة، و التدهور الذي حدث في الدول الإسلامية كان بسبب المنافقين

والملتفين حول الحاكم. و لدينا أكبر مثال على ذلك جمال عبد الناصر و أنور السادات فقد كانت بدايتهما جيدة و لكن أفسدهما من حولهما.

و قد كان عبد الناصر منزهاً عن الأطماع الصغيرة، و لكن الموقف يختلف تماماً بينه و أي نائب من نوابه باستثناء حسين الشافعي الذي وجد اطمئنانه في التصوف المستنير.

و لم يقبل عبد الناصر أن يعتبر الوصول إلى الحكم فرصته للتسلل إلى طبقة أعلى، و لذلك احتقر البذخ من أعمق أعماقه. (١)

و أكثر السياسيين في الديمقراطيات نجاحاً الذين يتوصلون إلى القضاء على الديمقراطية و يصيرون دكتاتوريين. و ليس هذا بطبيعة الحال ممكناً إلا في ظروف معينة، فما كان هناك من يستطيع أن يفعل ذلك في إنجلترا في القرن التاسع عشر. و لكن عندما يكون ذلك ممكناً فإنه لا يتطلب سوى قدراً أكبر من نفس الصفات التي ينبغي توافرها في السياسيين في الديمقراطية بصفة عامة، أو على أي الأحوال، الصفات المطلوبة في أوقات الهياج... فلينين و موسوليني و هتلر مدينون بما وصلوا إليه للديمقراطية.

و قد يتم التحول من الديمقراطية إلى الدكتاتورية بطريقة غير متوقعة، حين يركب هذه الجماهير شخص يعرف كيف يخاطب الجماهير أو الرعاع بمنطقهم فيصل إلى سفينة الحكم و هو مخدر للجماهير من الوعود التي أعطاها في إيجاد أفضل نظام ديمقراطي يعيد النظام و الأمن و الاستقرار إلى البلاد.

و يرى روبرت ماكيفر أن الدكتاتورية أو نظم الطغيان عموماً هي التي تهيئ الحكم للديمقراطية. ذلك لأن التحول نحو هذه الأنظمة الدكتاتورية قد يكون سطحياً، فيتغير مركز السلطة دون أن يتغير شكل الحكم، و يحدث هذا التغيير بانقلاب أو ثورة داخل قصر الملك، أو بتبديل عائلة بعائلة أخرى. (٢)

ليست الرموز و النماذج أمراً نافهاً بالنسبة لتكوين العلاقات بين الناس و الدكتاتور، بين الناس والناس، و بالتالي في تكوين الحب، و الشخصية، و بنيان الديانة. و في الواقع أن تصرفاتنا وسلوكنا

١- مجلة روز اليوسف – القاهرة العدد ٣٦٥٥ ١٩٩٨/٦/٢٩ من حديث د. أحمد عكاشه مع منير عامر ص ٥٣

٢- روبرت ماكيفر: تكوين الدولة ترجمة حسن صعب دار العلم للملايين- بيروت ١٩٨٤ ص ٢٧٨

تتعلق بكيفية تصورنا للدكتاتور، فإذا تصورنا الدكتاتور جزاراً لا يرحم، و شريراً خطراً، لا يمكننا والحال هذه، إلا أن نقدم الخضوع الواجب، و الضحايا البرينة، و نسهر على المحافظة على أدق تفاصيل الشريعة، لا حباً به، بل خوف التعرض لأي مشكلة معه. و من هنا تكون الوساوس والهواجس، و التهاويم، و المخاوف، و العادات المستهجنة، و الأفكار المثبتة.. أما إذا تصورنا الدكتاتور ذلك الأب العطوف، المحب، الغفور، المخلص، فلا يمكن إلا أن نثق به و نحبه، و نتكارم معه، و نتصرف بحرية و فرح.

توصيف الأنظمة الدكتاتورية

في ظل المجتمعات الدكتاتورية نرى بنية شاملة تقنية- بيروقراطية، أو نزعة شمولية مركزية.

و بالنسبة للمجتمعات الأولى نرى منظومة أنواع الحياة الأخلاقية و أشكالها تفرض فرضاً بالقوة في هذه المجتمعات. و لذا فإن هذه المنظومة تقع في الطرف الأقصى الذي ينتهي إليه اللاتخلق. و هنا يصيب التشويه و الفساد و الانحطاط ضروب أنواع الحياة الأخلاقية المقبولة رسمياً. و على هذا المنوال يدفع التخلق الصور الرمزية المثالية شطر تأليه الرئيس العرق- الأمة الذي يزعم أنه يجسده. و كذلك يحمل التخلق الآمر على تصور أنه طاعة عمياء لأي لأمر يعطى، و يصار إلى تأويل تخلق الأحكام الخلقية الذي يبعث بعثاً مصطنعاً، تأويله في الصورة الوحشية الماثلة في الوشاية وفي الاضطهادات العفوية. أما التخلق التقليدي الذي يشجع تشجيعاً شكلياً فإنه لا يعترف به إلا ظاهرة محافظة، بله ظاهرة رياء ذ ليل. و تخلق الفضائل يغدو إخلاصاً للرئيس و لضراوة القتال، والتخلق الغاني و التخلق المبدع يختلطان بالرضوخ الخانع للإجهزة.

أما المنظومة المتسلسلة لأنواع الحياة الأخلاقية و أشكالها المعلن عنها رسمياً فإنها تنحل إلى الخطة التالية:

أ- تخلق الصور الرمزية المثالية، و يمثلها (الدوتشي)، (الفوهرر) زعماء النظام التقني الكبار من مدنيين و عسكريين، كما يمثلها العرق (المختار)، و هذا التخلق ذو شكل صوفي، تفكيري، صارم، متبع إتباعاً حازماً.

ب- إن تخلق الأحكام الخلقية المصحوبة بارتكاسات عنيفة يأتي في المنزلة الثانية، وأشكاله هي نفس النوع الأول، باستثناء الشكل الحدسي الذي يحل محل الشكل التفكيري.

جـ- و في المنزلة الثالثة يأتي التخلق الآمر الصادر عن المنظمات السياسية و الاقتصادية و العسكرية الكبيرة و هو يفسر تفسيراً صوفياً.

د- ثم يأتي التخلق المبدع الذي يختلط بالنزعة الحيوية للقوة الغاشمة و السيطرة، و هذه السيطرة سيطرة قومية و عرقية و تقنية معاً، و يرجح نسبتها للرئيس.

هـ- و في المنزلة الخامسة و الأخيرة ينبغي وضع التخلق التقليدي الذي يصح وقفاً على القسم المستذل الخاتع من السكان.

إن تخلق التطلع الذي تتركز فيه الحياة الأخلاقية الراهنة بأسرها، يظل خارج هذا التسلسل و يصبح، بالدرجة الأولى، التطلع نحو انهيار هذه البنية. (١)

أما المجتمعات الثانية فهي ذات النزعة الشمولية المركزية، فإن كانت الأولى تحمل سمة الدكتاتورية فالثانية تحمل سمة دكتاتورية الحزب الواحد.

إننا نجد الحياة الأخلاقية في هذه المجتمعات معقدة جداً و لا تخلو من إبهام. فمن حيث نظريتها الرسمية، إنها تتجه شطر تقدم التخلق و إعادة تقديره. فهي تستوحي من نزعة أخلاقية، إن صح القول، و تحلم بخلق نزعة إنسانية جديدة تسيطر على النزعة التقنية. و على الرغم من ذلك فإن طغيان سلطة الدولة، و دكتاتورية الحزب الوحيد، و نظامه الضيق، و قوة التنظيمات التخطيطية التي لا تخضع لمراقبة المعنيين أنفسهم، و فقدان الإدارة الذاتية العمالية الحامية من السلطة التعسفية لطغيان النزعة التقنية في المعامل، كل ذلك يؤلف عوائق جدية تقف في وجه تقدم أهمية الحياة الأخلاقية من بين سائر آثار المدنية في هذه المجتمعات. و على هذا النحو تحفل الحياة الأخلاقية في هذه المجتمعات بالوعود التي لا تتحقق إلا بصورة جزئية جداً. و هذا ما يسبغ على هذه المجتمعات حلة اشتداد درامي حاد الوطيس.

١- جان كزنوف: السعادة و الحضارة ترجمة د.عادل العوا مطبعة جامعة دمشق- دمشق ١٩٧٢ ص ١٦٦

سمات شخصية الدكتاتور

سمات السلطة الدكتاتورية نجدها في كل مكان و في كل الطبقات، و لكن ما يبدو لنا من السلطة السياسية النخبة و الأقلية و في القاع تتمدد أكثرية خائفة محجوزة في مثلث الرعب، كما هو مثلث برمودا الذي قيل ما قيل فيه من ابتلاعه السفن و (الطائرات) المارة به.

هذه المسألة حيرت المفكرين منذ قرون، فحاولوا فك لغزها و كان سؤالهم، ما الذي يثير الشهية إلى سلطة لا تعرف الشبع؟ و كيف يتقرر مصير من يسلك الدرب ليصل إلى القمة؟ و أخيراً كيف تؤثر متعة السلطة في مزاج الأقوياء الجبارين للوصول إلى الدكتاتورية؟

و أسباب ذلك تعود إلى التنشئة الخاطئة و إلى العقد التي تترسب من فعل بيولوجي (وراثي) إلى المجتمع بحيث يتخدر الإنسان بمنطق السلطة و يحو له من إنسان عادي بسيط إلى دكتاتور سادي.

تقول جراسيا ميشيل أرملة رئيس الموزامبيق الراحل: أن يكون المرء رئيساً للبلاد فذلك يعني حياة فظيعة، فهناك دوماً أناس يحيطون به رغم أن المرء يشعر بأنه وحيد تماماً. (١)

إن هذا التحول يخيفنا و هو يخص كل واحد منا يجلس على كرسي كبير جاهز لإصدار أوامره إلى أقل منه سلطة، و بالتراتب، حتى يسحق مناوئيه و من لا يلتفتون إليه أو يطيعونه أو يتجاهلونه، أو يتفوهون: لا حول و لا قوة إلا بالله.

و الشعوب هي التي تصنع الطواغيت كما تصنع خلية النحل ملكتها من أصغر العاملات.. كل ما تحتاجه حتى تصبح ملكة هو تغذيتها برحيق خاص. و في عالم البشر يمكن لأي مغامر من أمة مريضة أن يقفز على ظهر حصان عسكري إلى مركز الصدارة و التآله. معتمداً على أمرين: عدم التورع عن سفك الدماء، و تجنيد الأتباع بغير حساب و ضمير. (٢)

يقول نعوم شومسكي: إن بناء شخصية رمزية من قبل صناعة العلاقات العامة يعتبر إسهاماً في حل معضلة عويصة تجب مواجهتها في أي مجتمع يجمع بين السلطة المركزة و الآليات

١- صحيفة الشرق الأوسط لندن ١٩٩٨/١/٧ ص ١٥

٢- = = = = ٢٠٠١/٥/٢ ص ٨ خالص جلبي

الشكلية التي تتيح للجمهور العام، نظرياً، أن يشارك في إدارة شؤونه، و بذلك يوجه خطراً لذوي الامتيازات. هناك، سواء في المناطق الخارجية التابعة أو في داخل البلاد، أناس غير مهمين يجب أن يتعلموا الخضوع، و إن اجتراح شخصية أكبر من حجمها الحقيقي هو أداة كلاسيكية لتحقيق هذه الغاية. و نحن نقرأ منذ أيام هيرودتس كيف أن الناس الذين كافحوا لنيل حريتهم (قد أصبحوا مرة أخرى خاضعين للحكم المطلق) من خلال أعمال الزعماء من ذوي الاقتدار و الطموح الذين (ادخلوا لأول مرة طقوس الملكية) فابعدوا الزعيم عن الجمهور و خلفوا في الوقت ذاته أسطورة تقول (إنه كائن من نوع آخر يختلف عن سوية الناس)، كائن يجب إحاطته بالغموض، تاركين أسرار الحكم، وهي ليست من شأن الدهماء، إلى من هم أقل لها. (١)

و يتبين مما ذكرناه أن الدكتاتور هو الشخص المستبد الجاثم بكل ثقل طغيانه على رقاب الناس، يراقب منهم كل تحركاتهم، و يعد عليهم أنفاسهم فيتقلص الناس على أنفسهم ، و يخشون منه السياط تلهب كواهلهم، ويتذللون أمام جبروته، و ينفذون جميع نزواته.

و في هذا الجو الخانق ينتظرون، و في طول أناة، منقذاً يخلصهم من ذلك الوضع القاتم، المشحون بالثورات و الأزمات النفسية، و يحلمون إذ ذاك بغد أفضل، بعصر ذهبي، بالمدينة الفاضلة و الحب الأكبر. و الحق إنه لولا هذا الحلم ما كان ليكون بالإمكان أن نرى شعباً يمشي وراء زعيم، وراء (الزعيم) البطل، حتى على غير هدى، واضعاً بين يديه جميع الإمكانيات لأنه هو وحده (يمسي المخلص) المنتظر. أجل، لولا هذا النموذج ما استطاع أن يقوم زعيم، و لا يحرّر محرّر، و لا ينقذ منقذ، إذ كلهم كانوا مثل سائر الناس. زد على ذلك أن (المنقذ) حاذق يتمثل الدور فيستفيد من الظروف و الأحوال ليستجر إليه الناس فيعقدون عليه أزهى آمال التخلص ممن يعانون من نيره. (٢)

إن الدكتاتور له سلوك سيكوباتي Psychopathic و هي شخصية مرضية، شأنها في ذلك شأن الشخصية الهستيرية. و الفرق بين الشخصيتين هو فرق في نوع الانحراف السلوكي، ومدى ما يحدثه هذا الانحراف من أضرار تتصل بأفراد المجتمع. ذلك أن السلوك السيكوباتي يدفع

١- نعوم تشومسكي إعاقة الديمقراطية مركز دراسات الوحدة العربية- بيروت ١٩٩٢ ص ٩٢

٢- صحيفة العربي- القاهرة ١ نيسان ٢٠٠١ ص ١٠ محمود أحمد سعيد

صاحبه عادة إلى إلحاق الأذى بالغير، بينما السلوك الهستيري لا تتعدى أضراره صاحبه.

و يتجنب الدكتاتور أهل الخبرة و يعتمد على أهل الثقة فتتحول الإدارة في كثير من المواقع ما يقرب من الشللية مع ما يصاحبها من إجراءات أمنية قمعية بسبب و بدون سبب تعظيماً لدور الأمن و إبراز لاحتياج الحاكم له.

و إذا كان مصطلح كاريزما Charisma يعني الحالة التي تحيط بالزعيم و تجعله متميزاً على الصعيد الشعبي و قدرته على الانصياع له أو التعلق به، فإن القطب المعاكس للشخصية الكاريزمية هو الحاكم المطلق (الدكتاتور) الذي يحكم بالقوة و بفعل الخوف الذي يثيره لدى مواطنيه. أو لعله الحاكم الذي يطيعه أتباعه بصرف النظر عن قدراته و كفاءاته الشخصية امتثالاً منهم للموقع القيادي الذي يحتله.

يضع الدكتاتور الأهداف التي يراها هو صالحة لشعبه أو أمته، و لتحقيق هذه الأهداف فإنه يصطدم بالقوى الوطنية المستنيرة فيبطش بها و يزيحها من طريقه بالسجن أو القتل. و الدكتاتور مقتنع هو ذاته بما يمليه على شعبه، و لا ينظر في العادة إلى مكسب مادي شخصي إلا أن يرى الشعب يتبعه إلى أهداف لم تكن يوماً ما على قائمة تطلعاته أو أحلامه، و هو حريص أن يثبت كل يوم أنه على صواب و أو مخالفيه ما هم إلا عقبات و عوائق و على شعب أن يتخلص منهم ليحقق المجد و الفخار.

أما الطاغية فهو يتشابه مع الدكتاتور في معظم الصفات القيادية إلا أنه يضع أهدافاً من عنده لصالحه هو و إن تبنى أحياناً بعض مطالب الشعب تغطية على أطماعه الشخصية، و تأتي فروق مهمة بعد ذلك بينهما. فبينما يستطيع الدكتاتور أن يقنع بعض شعبه أو حتى معظم شعبه بالأهداف التي وضعها نظراً لأنها عادة توهم بالمجد و العظمة و الاعتزاز الشديد بالوطن و الجنس مما يسمح له بمزيد من التأييد، فإن الطاغية سريعاً ما يفشل في إقناع شعبه بأهدافه و لذا فهو الأسرع في البطش و الأقسى في التنكيل و الأشد في الصدام. (١)

و قد جعل ابن تيمية من قوة الإكراه جوهر الحكم، إذ لا غنى للبشر عنها للبشر معاً، وللحوول دون تفكك عرى التضامن بينهم بفعل الأنانية الطبيعية. و لما كانت قوة الإكراه هذه

١- صحيفة العربي- القاهرة ١ نيسان ٢٠٠١ ص ١٠ محمود أحمد سعيد

ضرورة من ضرورات المجتمع، فإنها تنشأ بفعل عملية استيلاء طبيعية يضفي عليها عقد التشارك طابع الشرعية. و للحاكم كحاكم، أن يفرض واجب الطاعة على رعاياه. إذ إن الحاكم، و لو كان ظالماً، لخير من الفتنة و انحلال المجتمع: (أدوا إليهم حقهم و أسألوا الله حقكم). (١)

يقول جبرا ابراهيم جبرا: قليلون هم الطغاة الذين يعترفون بأنهم طغاة. (٢) و لعل سياسة الطغاة جعلت من إمام المجتهدين الفقيه ابن تيمية (١٢٦٣-١٣٢٨) يقول ماذا يستطيع أعدائي أن يفعلوا بي؟ إن سجني خلوة، و النفي بالنسبة لي نزهة، و قتلي شهادة... فماذا يصنع الأعداء بي.(٣)

و في العهد الدكتاتوري تكون الرشوة في مقدمة أسباب فساد الحكم، تقف في وجه العدالة و تقضي عليها في كثير من الظروف، فضلاً عن كونها من جملة النقائض الخلقية في المجتمع، تدفع بصاحبها إلى الطمع بمال الغير دون أدنى مبرر، فالمرتشي لا يقل إجراماً عن اللص و غيره من المجرمين، بل هو أخطر منهم لأنه يظل متمتعاً باعتبار الشركاء و المتزلفين و المرتزقين من مال الظلم. و الراشي و المرتشي هما شريكا المرتشي في جريمته و إن كانا دونه في درجات الإجرام، لما قد يكون في إقدامهما عليه سبب من الأسباب الاضطرارية أو المخففة للعقوبة.

إن أول أسباب الإقدام على الرشوة و قبولها هو ظلم الحكام، على اختلاف درجاتهم وأنواع وظائفهم، يضاف إليه سوء التربية الأساسية و ضعف الثقافة الخلقية و فساد الضمائر و ابتعادها عن حقيقة الإيمان بالله و بيوم الحساب الرهيب. (٤)

و لا تقتصر شخصية الدكتاتور على المجال السياسي، فهذه الشخصية موجودة في ألف قناع و قناع حتى بين رجال الدين. يذكر الخوري ميخائيل بربك الدمشقي هذه الحادثة:

في عام ١٧٧٧ تحرك نصارى دمشق من شدة الجور و كتبوا مكاتيب بحق بطريركهم دانيال إلى صفرونيوس البطريرك القسطنطيني يشكون أحوالهم و ما صدر عن بطريركم دانيال من الظلم و حب المال و البخل و غير قضايا. و أعظم من ذلك أنه كان يدّين دراهم بالفائدة و صار اسمه ظاهر أنه مرابي فوقعت الشرور و قامت الضغون و الجمعيات مدة سنتين و من حيث لم يوجد في دمشق رأس بعقل صائب و لا يوجد بينهم محبة و كل من يقول كلامه يضاده الأخر و بعد مكاتبات

١- البرت حوراني: الفكر العربي في عصر النهضة دار النهار- بيروت ١٩٧٧ ص ٣٢ نقلا عن ابن تيمية: السياسة الشرعية ص ٢٩

٢- جبرا ابراهيم جبرا رواية (السفينة) دار الاداب- بيروت الطبعة الثالثة ١٩٨٣ ص ١٢٤

٣- صحيفة الأهرام- القاهرة ٢/٤/٢٠٠٠ ص ٣٤

٤- يوسف الحكيم سورية و العهد العثماني دار النهار- بيروت ١٩٨٠ ص ٨٢

و نزاع و قلاقل كثيرة مدة سنتين أرسل قدس البطريرك القسطنطيني صفرونيوس مكاتيب و مناشير يترجى الدمشقيين أن يصطلحوا مع بطريركهم فقبلوا رجاءه و كلامه و قبلوا رجوع بطريركهم إليهم بشروط بينهم مقبولة من الطرفين. و هكذا انقضت الأمور و انصرفت بوجه الصلح و المحبة من الطرفين لأن بطريركهم دانيال كان حينئذ في القسطنطينية. (١)

التصلب في الرأي

إحدى سمات الدكتاتور التصلب في الرأي و المواقف إلى الحد المرضي. و يرتبط التصلب بخاصية أساسية للمخ تمنع (منطقة) سلوكية من التفاعل مع (منطقة) سلوكية أخرى لها صلة بها و تعديلها. و هما يفسران التصلب تفسيراً طوبولوجياً باصطلاحات أنساق التوتر و تصلب الحدود التي تفصل بين هذه الأنساق.

و نسق التوتر كما يرى ليفين هو مجرد (نسق منظم من الاستجابات تؤدي كلها أو صممت لكي تؤدي إلى هدف معين، و قد يكون النسق غير هام و لا يستمر وقتاً طويلاً، مثلما يتسلق طفل سوراً ليأتي بكرة من الجانب الآخر للسور، و قد يكون النسق هاماً و مستمراً، مثل المجهودات المستمرة لشخص طموح بهدف الوصول إلى النجاح في عمله. و تظهر قوة أو تصلب الحدود بين الأنساق في استعداد أوجه النشاط التابعة لهدف ما لأن تفرغ في هدف آخر). (٢)

و يعني تزايد قوة الحدود التي تفصل بين المناطق المختلفة من البناء النفسي زيادة في تصلب الشخص، بحيث يصبح من الصعب عليه تغيير وسائله إن عز عليه الوصول إلى الأهداف عن طريق تلك الوسائل، كما أنه يصعب عليه تغيير اهتماماته و أن سببت له ألماً أو خسارة . و إذا تزايد التصلب بدرجة أكبر من تزايد التمايز في البناء النفسي، كان الفرد متأخراً في نموه العقلي، فقابلية المناطق المختلفة من البناء النفسي للتمايز تقل كثيراً جداً لدى ضعيف العقل. و تزيد درجة التصلب كلما زادت عزلة الشخص.

١- الخوري ميخائيل بريك الدمشقي: تاريخ الشام ١٧٢٠-١٧٨٢ تحقيق و تقديم أحمد غسان سبانو - دار قتيبة- دمشق ١٩٨٢ ص ١١٧

٢- د. محمد فرغلي فراج: مرضى النفس في تطرفهم و اعتدالهم الهيئة المصرية العامة للتأليف و النشر - القاهرة ١٩٧١ ص ١٦

و يعرّف عالم النفس ل. وزلى التصلب بأنه الميل للاستمرار في استجابات كانت من قبل ملائمة في موقف أو آخر، و لكنها لم تعد تبدو كافية لتحقيق الأهداف الحالية أو لحل المشاكل الحالية. وقد أجرى وزلى بحثاً لدراسة السلوك المتصف بالقصور الذاتي في عملية تكوين المفهوم كدالة للقلق الصريح و للتصلب. و هذا البحث عبارة عن دراسة للعلاقة بين التصلب و القلق من ناحية، و بين القصور الذاتي كما يظهر في عمليات تكوين المفهوم. و يمكن إرجاع الفروق بين آثار القلق الظاهر و التصلب إلى الفروق في العادات المرتبطة بحالة الحافز الأساسي، أو إلى السرعات المتفاوتة في نشأة الكف لدى المجموعتين. (١)

و في تحليل اتجاه التصلب لدى الدكتاتور علينا التمييز بين التصلب السلوكي و التصلب الطوبولوجي، فالأخير يتعلق ببناء الشخصية و هو عامل هام بالشخصية يؤثر على إدراك و تنظيم المجال النفسي و تكوين الكليات بحيث يمكن أن تجعل الفرد مرتبطاً ارتباطاً شديداً بالمواقف المحددة، و عاجزاً عن مواجهة المواقف الجديدة بينما التصلب السلوكي يشير إلى التشبث بنمط سلوكي واحد بدوافع و حاجات و أهداف ثابتة.

و من دراسة لبراين تبين له إنه كلما ازداد تصلب الشخص، ازداد بطء التغيير الذي يقوم به الشخص فيما يتعلق بمنطقة الهدف، و قد استنتج من هذه القضية التغاير في سمات التثبت والتحمل و المثابرة و الاستمرار و الملمح الأساسي للبنود هنا هو التماثل و التغير. و كلما زاد التصلب زاد ثبات المناطق النفسية الداخلية، و قد أطلق على هذا البعد التماسك و عدم التماسك. وحين يزداد تصلب الشخص يزداد تمايز المناطق الداخلية الشخصية الثابتة و استدل من هذه القضية، التغاير في سمات الكف و التفكير التأملي و التردد، و أطلق على هذا البعد الضبط والاندفاع. و أخيراً كلما ازداد التصلب، زادت القوة النسبية للمستويات الواقعية و الحاضرة في حيز الحياة، واستنتج من هذه القضية التغاير في بعد الموضوعية الذاتية. (٢)

1- Wesley, E.L: Perseverative Behavior in a concept- for- Nation Tash as function of manifest anxiety and rigidity, j. Abnorm, soc. Psychol 1953, 48, 129-134

2- Braen, B.B. Development of a theoretically- Bassed manifest rigidity inventory, psychological report, 1960 P 75-88

النرجسية

من سمات الدكتاتور عشقه لنرجسيته حيث يسخر وسائل الإعلام للإشادة به و تعظيمه وتكبير صورته لدى الرأي العام و ذكره في كل المناسبات و وضع صوره و تماثيله في كل مكان.

و مع أن النرجسية تدخل ضمن جنون العظمة و لكنها تختلف عنه، لأن المجنون بالعظمة ليس مراده أن يكون موضع الإعجاب و الحب، بل يرمي قبل كل شيء إلى أن يكون قوياً مرهوباً. وإلى هذا الطراز ينتمي مجانين كثيرون من نزلاء المصحات العقلية، و ينتمي إليه الغالبية من مشاهير التاريخ.

إن الذات المغالية بذاتها تفرض نفسها في حالتي الهجوم أو الوجوم بصلف عات، مغلفة بحالة من الاعتزاز بالذات الذي يقترب من الحالة (النرجسية) إلى درجة يستحيل معها القول أن ضمير الذات، يبدو ضميراً فاعلاً اللهم إلا داخل الذات و ليس خارجها بأية حال، و هو ما يعكس أن يعيش هذا الإنسان، القوقعة المصمتة بشكل غريب.

و في الحالة النرجسية نرى أحياناً أن أول انطباع لها هذه الحالة التي يختلط فيها الحسن بشكل ذاتي إلى Auto اكثر من أي شيء آخر، فلا يعرف صاحبها إلا في حالة الهجوم المستمر، وإلا في حالة الوجوم المستمر، و إلا في حالة الاختفاء الغامض أو الحضور ضيق الصدر، الموغل (حالة) يعجب بها المتابع لتصرفات هذا الشخص.

و في بعض الشخصيات تختلط حالات كثيرة بها : النرجسية و الذاتية و الشوفونية مما يصل بها، هي من هي، إلى قدر كبير من العمومية في الحكم على الآخرين، بل تخطو خطوات أبعد وأعنف حين تسعى إلى تشويه الآخرين بشكل عصابي عات و عنيف.

و الحس النرجسي ترتبط رموزه بالأسطورة الإغريقية التي تحكي أن نرسيس Narcissus هو أول إنسان استطاع أن يرى نفسه في المرآة، و حين اكتشف هذا الوجه المنعكس في الماء امتلأت نفسه إعجاباً به، و من ثم، حاول بعد التحديق إلى صورته في الماء أن يمسك به فقضى شطراً كبيراً من حياته محاولاً الإمساك بهذا الوجه الرائع عن الجسد.

و النرجسية من بعض وجوهها نقيض التأثم، لأن المتأثم يحتقر نفسه.. أما النرجسي فمن عادته أن يعجب بنفسه، و هو دائم الرغبة في أن يعجب به الناس.

و هذه الصفة طبيعية إلى درجة ما، و لا لوم عليها ما دامت في حدود المعقول، بيد أنها تنقلب شراً مستطيراً متى تضخمت.

إن شخصاً نرجسياً خلب لبه، ما يلقاه السياسيون من تمجيد و تكريم قد ينقلب دارساً للسياسة. و لكن السياسة في حد ذاتها ليست غايته، و إنما هي مجرد وسيلة، فلا يعنيه أي موضوع سياسي لا يخدم غايته النفسية، و هي تمجيد ذاته. فلا عجب أن يخفق في دراساته السياسية و يكون مآله الازدراء لا التمجيد.

أمراض شخصية الدكتاتور

تتراوح أمراض شخصية الدكتاتور بين البسيطة إلى أن تصل إلى مرحلة الجنون Insanity ، و يستعمل هذا اللفظ في القانون و الطب الشرعي لوصف الاضطراب العصبي الذي يجعل الشخص غير مسؤول عن أعماله. أما في الطب النفسي فيستخدم لفظ Psychosis للإشارة إلى الاختلال البليغ في القوى العقلية، و الذي يؤدي إلى إخلال في جميع وسائل التكيف و التوافق الاجتماعي و المهني و الديني.. كما يؤدي إلى اضطراب كل ما في الشخصية مع فقدان القدرة على الاستبصار.

و تندرج في باب أمراض (الذهان) التي يتفرع عنها (الشيزوفرينا) أو (انفصام الشخصية، و هذه تتفرع عنها البارانويا، و لها عدة أشكال، كما هو حال التعريفين السابقين). أما ما يهمنا هنا هو نوع الشعور بالعظمة و ما يتخلل ذلك.

و المريض العقلي يكون في حالة انفصام الشخصية فقط حين يكون مشلول الإرادة، متقطع التفكير، مفكك السلوك، مشتت الانتباه، رث الثياب، يكلم نفسه أو يرى مناظر لا وجود لها، أما في الحالات الأخرى فإن سلوكه يكون طبيعياً. و الصحة النفسية مرتبطة بالتمركز حول الآخرين والمرض النفسي مرتبط جداً بالتمركز حول الذات.

و قد توصل فرويد، و كذلك شريحة لا بأس بها من العالم الغربي إلى الاقتناع بالدور الذي تلعبه القوى اللاواعية في الشؤون البشرية. بعد ذلك بذل فرويد و من بعده تلاميذه، جهوداً باسمة من أجل عقلنة اللا معقول، من أجل سجنه في شبكة من الأسباب و النتائج يتعذر اجتيازها بفضل ترسانة من العقد و تفاسير الأحلام و التحويلات و التصعيدات إلخ... حتى أصبح ممكناً شرح أي جانب مرني من السلوك البشري بجرح ما في الحياة النفسية. (١)

و تتكون الشخصية الإنسانية من ثلاثة عناصر: الهو و الأنا و الأنا العليا، أما الهو فهي مجموع النزوات و الغرائز و الرغبات المكبوتة. و قوى مثل هذه لا يمكنها، بطبيعة الحال، أن تخضع

١- فرنسوا جاكوب: لعبة الممكنات- بحث في تباين الحي ترجمة أحمد صالح دار الحصاد- دمشق ١٩٩١ ص ٣٧

إلا لمبدأ اللذة، متجاهلة تماماً عوامل الزمن و العلاقات السببية و المنطقية. فالطفل عند الولادة، يكون ضُمة متراصة من (الهو) رغم تمتعه بخصائص تشده نحو (الأنا) كالإدراك الحسي و التحرك، و خصوصاً التدرج في فهم الواقع.

أما (الأنا)- و هي في التحليل النفسي غيرها في علم النفس، و لا ترادف (الشخصية) أو (الفرد)، و لا هي خصوصاً وعي الشعور بالذات- فهي بنية من الشخصية لا تحدد إلا بوظائفها المتعددة. إنها مسؤولة عن ترتيب الحركة و الإدراك و تنظيم العلاقة مع الواقع، و تخفيف حدة التوتر الناجمة عن الحوافز الخارجية و الباطنية على السواء، و السماح بالإفراغ أو إرجائه إلى وقت لاحق، و التكهن بالأخطار المحتملة الوقوع، و الدفاع عن النفس، و تدبير الميول الشخصية، فعمل (الأنا) متشعب إذن، و هو واع كالإدراك و الفهم، و غير واع كعملية أواليات الدفاع. لذلك (فالأنا) متعلقة بمبدأ الواقع لأنها تحسب للزمن و المبادئ الثابتة. أما تكوينها فيمكن القول بأنها حصيلة التقاء (الهو) بالوسط الاجتماعي الخارجي. و إذا كانت (الهو) تقوم بالدور الاندثاري فإن (الأنا) على خلاف من ذلك، تقوم بالدور الاكتمالي.

و أخيراً (الأنا العليا) فهي مجموعة الممنوعات و المحرمات و القوانين الأخلاقية، و هي بمثابة (الرقابة) المتشددة التي تسيطر على جميع أعمال الشخص، و تردع النافل منها، و التي تتمشى مع مفاهيم الوسط الاجتماعي. ثم أنها تلزم (الأنا) لتعترض سبيل بعض النزوات.

إن الهو تتأثر بالعوامل الوراثية و (الأنا الأعلى) بالوسط الاجتماعي- و هو كائن قبل الشخص، أما (الأنا) فتتأثر خصوصاً بتجارب الشخص الخاصة. و غني عن البيان أن هذه التقسيمات لا يمكن عدها مستقلة الواحدة عن الأخرى، أو تناقض الواحدة الأخرى، بل العكس هو الصحيح.. فلا سبيل لتحديد الواحدة إلا بالأخرى، و لا وجود للواحدة إلا بمقابل الأخرى. (١)

تعريف بأمراض الدكتور

نبدأ بالذهان Psychosis و هو اختلال بليغ في القوى العقلية يؤدي إلى اختلال جميع وسائل التكيف و التوافق العقلي و الاجتماعي و المهني و الديني إلخ، و إلى اضطراب كلي في

١- مجلة المسرة- حزيران شباط السنة ٥٧/ ١٩٧١ ص ١٠٤و ١٠٥

الشخصية مع فقد القدرة على الاستبصار Insight. و تطلق كلمة ذهان على الحالات النفسية المنشأ. (١)

و من خصائص الذهان الأساسية تدهور و اضطراب في شخصية الإنسان، و تفكك واضطراب في التفكير و مجرى الذهن، و اضطراب و تشتت في الوجدان، و انفصام عن الواقع و الحياة، و حياة حالمة تنتابها الأوهام و الهلوسات، و فقدان بعض أو كل البصيرة.

أما أصناف الذهان الوظيفي فهي:

١- ذهان الفصام (الشيزوفرينا) و تشمل:

أ- الفصام البسيط ب- فصام المراهقة جـ- فصام الكتالونيا (التشنجي) د- فصام الاضطهاد الزوراني (بارانويا).

٢- الذهان الوجداني و يشمل على :

أ- ذهان الهوس الدوري ب- ذهان الاكتئاب (الداخلي) جـ- ذهان الهوس و الاكتئاب الدوري د- الميلانخوليا (كآبة سن اليأس).

٣- ذهان الاكتئاب- الفصامي المختلط

٤- الذهان المحلي (أعراض ذهانية خاصة)

٥- البارانويا (ذهان الاضطهاد) أو (الزور) (٢)

و يعرف د. يوسف مراد بدوره الذهان الهذائي بقو له: هو ذهان مزمن من أعراضه الرئيسة الهذاء أو الاعتقاد الخاطئ – غير المطابق للواقع- المنظم، و قد يبدو المريض سليماً من حيث القدرة على الاستدلال و المحاجة غير أنه يبني استدلاله على اعتقادات فاسدة وهمية و مقدمات باطلة. (٣)

أما الفصام Schizophrenia، و يذهب البعض إلى أن الشيزوفرينا هي الشبيه للفصام

١- منير وهيبة الخازن: معجم مصطلحات علم النفس دار النشر للجامعيين- بيروت ص ١١٢

٢- د. فخري الدباغ: أصول الطب النفساني دار الطليعة- بيروت ١٩٨٣ ص ٨٧

٣- مجلة علم النفس- القاهرة أكتوبر ١٩٤٦ مجلد ٢، عدد٢ ص ٢٨ د. يوسف مراد

و صاحبها يشبه الفصامي في سلوكه الثابت، أو في شخصيته المنسجمة من العالم الخارجي والمتجه نحو الذات، و يقف سلوكه على حدود عدم السواء، و ربما كان مقدمات أو صور أولية للسلوك الفصامي. (١)

و الفصام ذهان يتسم بمجموعة من الاستجابات الذهانية التي تشير إلى اضطرابات شديدة في العلاقة مع الواقع، كما يتسم بعالم تصوره و تحدده اضطرابات وجدانية و سلوكية. (٢)

و من أهم أعراضه انطواء المريض على نفسه و فراره من الواقع، و النكوص و التجول الذهني في عالم الخيال و الوهم، و عدم الاتساق بين المزاج و الفكر، و البلادة الوجدانية و فساد الحياة الوجدانية، و اعتقادات باطلة و هلوسة و أفكار الاضطهاد و العظمة و القدرة الخارقة وتقمص الكون، و شبقية ذاتية، و جنسية مثلية، و تفكك عام في الوظائف العقلية.

و للفصام أربعة أشكال اكلينيكية:

١- الفصام البسيط و عرضه الرئيسي الفرار من الواقع.

٢- فصام المراهقة و أعراضه الرئيسة تقمص الكون و أفكار العظمة.

٣- الفصام الهذاني و عرضه الرئيسي هذيان الاضطهاد.

٤- الفصام الكتاتوني و أعراضه الرئيسة الجمود و الصمت و المقاومة السلبية أو الإيجابية و القابلية الزائدة للإيحاء في محاكاة الأصوات و الحركات و التزام أوضاع الجسم الثابتة مدة طويلة بدون الإحساس بالتعب. (٣)

ومن ضمن أعراض الفصام (الأوهام) و منها الأوهام الاضطهادية، كأن يشعر المريض بأنه مراقب و أن مؤامرة خطيرة تحاك ضده. أو أن يكون لديه (أوهام العظمة) حيث يشعر المريض بأنه ذو قوة هائلة، يأمر و ينهي و يؤثر في مصائر الناس، و أنه يستطيع أن يصعق و يشل و يميت الآخرين، و أنه فوق الجميع يقرأ الأفكار أو يسلبها من الآخرين.

1- English & English Dictionary. New York, Logmans 1944 P 478

2- English H. B & English A.C. A Comprehensive Dictionary of Psycho- Logical and Psychoanalitical terms, New York, Logmans 1958 P.256

٣- منير وهيبه الخازن: معجم مصطلحات علم النفس مرجع سابق ص ١٣١

أما البارانويا Paranoia فلها عدة أوجه منها الجنون الهذائي التأويلي و البارانويا العشقية أو الحب، و البارانويا الخيلاء، و البارانويا الاضطهادية، و البارانويا التدين.

و رغم أن كلاً من الشيزوفرنيا (و معناها تفتت العقل) و البارانويا (معناها العقل البديل) يتشابهان في بعض الأعراض و ينتميان إلى أمراض الذهان أو الجنون، إلا أن مريض البارانويا يتميز عن مرض الشيزوفرنيا بقدرته على إخفاء الأعراض و خداع الآخرين، بقدرته على التظاهر بالشفاء و التعامل مع المجتمع، بموهبته الفائقة على إقناع البسطاء بأفكاره و إصراره عليها. كما يتميز أيضاً- بعناده و رأيه الشديد على صياغة و تنفيذ خططه الجنونية المنظمة. و هكذا فإن الفرق بين هذين النوعين من الأمراض العقلية ليس افتعالاً ظاهراً أو شكلياً يدعو للهزل، بل إن لكل مرض فيهما أيضاً طريقة مختلفة في العلاج و المتابعة و مراقبة المسموح و المحظور و كذلك في درجة المسؤولية الجنائية أمام القضاء.

البارانويا

إن كلمة (بارانويا) التي استعملها الطبيب الألماني كربلان لأول مرة، تطور معناها مع الزمن حتى أصبح يشتمل على أربع حالات:

١- حالة البارانويا بمعناها القديم و هي حالة نفسية تبدأ باكراً مع الإنسان و تتطور بتطوره، فإذا ظلت ضمن نطاق المألوف بقي على تماسك ظاهري في شخصيته.

٢- حالة البارانويا المستقرة: إنها تشبه الحالة السابقة لكنها لا تتطور مع تطور الإنسان، لأنها تولد معه و تبقى على حالها.. و هي أقل الحالات خطراً.

٣- حالة انفصام الشخصية التي يتصف صاحبها بأوهام الشك و العظمة، و نتيجتها تفكك الشخصية الواحدة إلى شخصيتين.

٤- حالة انفجار البارانويا: إن من يصل إلى هذه المرحلة يكون مصاباً حكماً بالحالات التي سبقتها، و محكوماً بإخراج كل ما هو مكتوم في نفسه. (١)

١- منيف حمدان: على يمين القوس دار الخلود- بيروت ٢٠٠٠ الجزء الثاني ص ١٣٩

و الحالة الطبيعية في سلوك البشر غير موجودة على الإطلاق، لكن التصرف الطبيعي المتعارف عليه عند الإنسان هو التصرف الواقعي المرن الذي يقوم به معظم الناس في مجتمع من المجتمعات عندما يوضعون في ظروف مشابهة.

و هنا نشير إلى وجود حالتين مختلفتين ضمن حالة البارانويا:

١- حالة البارانوياك

٢- حالة البارانويد

و الحـــالة الثانية وحدها تشكل عاهة عقلية، و من أعراضها الانزواء و الشعور الدائم بالخوف و الانطواء على النفس و عدم القدرة على التكييف الاجتماعي.

و يتصف المصاب بحالة انفجار البارانويا بالتغلب المتزايد، و عدم صحة الرأي، و عدم الانتظام الاجتماعي، و هذه الحالة تشبه حالة الجنون العاقل، و الذين يصابون بهذا المرض، و يبقون حاملين لإصابتهم منتظرين اشتعال عود الثقاب ليحدث الانفجار.

و البارانويا حالة نفسية تقوم على ركنين: ركن الشعور بالعظمة، و ركن الشعور بالاضطهاد، و من ثم يضيفون لكل ركن من هذين الركنين حد أعلى و حد أدنى. فمن بقيت حالته بين هذين الحدين كان شخصاً عادياً، و هذه هي حال السواد الأعظم من الناس، و لا يمكن للشخص العادي أن ينتقل إلى الحالة المرضية إلا بتوفر الشروط الثلاثة التالية و هي:

١- أن يتعدى هذا الشخص أحد الحدين في كل بعد. فمن يتجاوز الحد الأعلى في الشعور بالعظمة تكون عنده صفات القائد، متلبساً لشخصيته، مقلداً لحركاته، متصرفاً مثل تصرفاته. و لهذا نفهم لماذا اقتنع الشعب الفرنسي بطروحات نابليون.

٢- من يتجاوز الحد الأعلى في الشعور بالاضطهاد، يتقمص شخصية من فرض عليه الاضطهاد و يعمل المستحيل حتى يصير مثله، و يمارس على غيره ما كان يمارس عليه، متفننا في ابتكار يساعده على التفوق في هذا المجال.

٣- كما أن من يتجاوز الحد الأدنى في الشعور بالاضطهاد يصاب بالإحباط النفسي و ينطوي على ذاته، معظماً خيبة أمله في كل ما يطمح إليه و عجز عن تحقيقه، كمن وثق بفتاة أحلامهفأعطاها كل ما يملك من ماله ليكتشف أنها تعطي غيره قلبها و جسدها. و بعد التجاوز في الحدود يأتي دور الهذيان و الهلوسة، أي أن يختلط على هذا الشخص الأمور، فينصرف تفكيره إلى التركيز على نقطة واحدة تتراوح بين شعوره بعظمة نفسه و شعوره

بالندم على ما أقدم عليه مروراً باضطهاد الغير له، دون أن يكون عنده أي دليل موضوعي يبرر أياً من هذه المشاعر المختلفة المنطلقة من داخل تركيبته النفسية.

و من الأمثلة على ذلك (العداوة الحسية) و كيف تعبر لا إرادياً بين الزوجين إذا استشعر أحدهما مسؤولية الطرف الآخر عن عدم إرضاء مشاعره الحسية و كيف تعبر هذه العداوة عن نفسها في انفجارات دورية من الغضب و الكراهية تهدأ حيناً، و تتأجج حيناً آخر مشوبة بمشاعر الازدراء اللاإرادية. و كيف أن مشاعر الازدراء هذه هي المقابل المعكوس لمشاعر الاحترام التي كانت المرأة تود أن تمنحه للرجل الذي يلبي احتياجاتها، كما أنها أيضاً المقابل المضاد لرغبتها الأنثوية الغريزية في الانقياد له.

و الكبت الطويل لا بد أن يصحبه غضب و كراهية للنوع الآخر المسؤول في خيال المحروم عن حرمانه، و أن هذه المشاعر المتباينة هي المسؤولة غالباً عن ظهور النوع المعروف من النساء في علم النفس (كاره الرجال) لأنهم المسؤولون عن حرمانهن من حقهن الطبيعي في الزواج و الأمومة و الأنوثة، و هو المقابل المعادل للنوع الآخر من الرجال المعروف باسم (كاره النساء) لمسؤوليتهن (العامة) عن عذابه و تعاسته و حرمانه من السعادة.

و غير هذا و ذاك يؤدي الهذيان و الهلوسة إلى تضعضع كبير في الشخصية، وهذا التضعضع يترجم بعدم القدرة على وضع أي أمر من الأمور في نصابه الحقيقي، فإذا سمع شخصاً من الأشخاص يتكلم عبر الإذاعة، عن عظيم في التاريخ، شعر أنه هو المقصود بهذا الكلام، إذا كان من صنف المصابين بجنون العظمة.

و تصل الشعوب المكبوتة إلى حالة انفجار (البارانويا) حيث تصب كل عدائها على من تعتبرهم حجر عثرة في طريق تقدمها. و قد يأتي عليها يوم تصب فيه حقدها على أشخاص لا يصنفون عادة في خانة أعدائها.

و قد بلغ من تشرد الناس الإنجليز في كراهية الألمان إبان الحرب العالمية الأولى، أن تجاوز هذا التعصب العامة إلى العلماء. فهذه أشعة روتنجن، التي كان لها الفضل الأعظم في شفاء الألوف من الجرحى الإنجليز، و قد ألغي اسم صاحبها لأنه ألماني و جعل اسمها أشعة إكس، أو أشعة س. و هذا هو اللورد هالدين يعزل من وظيفته لأنه كان قد أعلن يوماً ما أن ألمانيا وطنه الروحي. و حتى الكلاب الألمانية، كان ينبغي أن يسميها أصحابها الإنجليز كلاباً الزاسية.

و في هذا الصدد جرت في عام ١٩٤٧ في باريس محاكمة الأميرال (دي لا بورد) قائد البحرية الفرنسية في طولون بتهمة إغراق الأسطول الفرنسي.

و قصة هذا الرجل غريبة...

فقد استدعاه (لا فال) إلى التوجه بالأسطول إلى الساحل الإفريقي عقب احتلال الألمان للمنطقة الحرة، و لكنه رفض هذا العرض حتى لا يقع الأسطول في أيدي الإنكليز كما رفض تسليم الأسطول إلى الألمان فأغرقه و أفناه على طريقة (الهاراكيرى)، و لم ينكر الأميرال دىلابورد التهمة، بل أجاب: لقد تلقيت الأمر منذ كنت طالباً في المدرسة البحرية بأن أغرق السفينة التي أقودها و لا أسلمها للعدو الأجنبي.

و الواقع هو أن العداء الشخصي الذي يحمله الأميرال دى لا بورد للإنجليز هو الذي دفعه إلى أن يلحق بفرنسا هذه الخسارة العظيمة التي كلفتها ربع مليون طن من البواخر الحربية، وبعمله هذا لم يفد في الدفاع عن بلاده و لا هو أبقى عليه.

و قد حكم على الأميرال بالإعدام و تجريده من ألقابه و مصادرة أملاكه. (١)

البارانويا و العبقرية

إن المصابين بمرض البارانويا مقبولون إجمالاً في مجتمعاتهم، حتى و إن قال عنهم بعض أترابهم إنهم أصحاب أطوار غريبة. و عندما يتطور مرضهم و تبدأ مشاكلهم مع محيطهم ينقلون إلى المصحات.

و الصفات السلبية التي تنسب إلى الأشخاص المبدعين و تلصق بهم أنواعاً من الاضطرابات أو الشذوذ هي متنوعة. و يبدو أن ارتباط العبقرية منذ زمن بعيد بأنواع من الإنتاج و السلوك المخالف لما هو شائع أدى إلى الإحساس بأنها مشكلة. كذلك يبدو أن مصاحبة الإنتاج الإبداعي لأنواع من السلوك الغريب و غير المفهوم- حتى لدى أقرب إلى صاحبه أحياناً- كانت تعمق الإحساس بارتباط العبقرية بأنواع من السلوك غير السوي. و على هذا يرجح أن تكون التصرفات الغريبة التي تصدر عن العباقرة من العوامل التي أدت إلى الربط بين العبقرية والجنون بوجه عام.

١- مجلة الدنيا الجديدة- القاهرة العدد السابع السنة الثالثة مايو ١٩٤٧

و هناك نوع من الجنون العبقري المصاحب للعبقرية، كما يوجد ربط بين العبقرية و ما يشاهد من بعض مظاهر السلوك الغريب أو الشاذ لدى بعض العباقرة، كالهوس أو المجون أو غيرهما بل و الربط بين العبقرية و نوع الذهان قريب من الصرع. و هنا ترد على الذهن نوبات الثورة و الاحتداد العجيبة التي كانت تنتاب بيتهوفن، و السخط المتوحش الذي كان ينتاب الروائي الإنجليزي جوناثان سويفت، و الوحدة الموحشة للرسام الهولندي فان غوغ التي انتهت به إلى الانتحار، و إجرام رامبو الشاعر الفرنسي الذي كان أحد رواد الاتجاه الرمزي في الشعر. والتأنق قليل الحياء للشاعر الفرنسي بودلير. و اليأس الرواقي لا ميلي برونتي، و التألم الجسمي و المعنوي الذي عاناه (هين) لإجراء تجاربه على نفسه. (١)

و يقرر كرتشمر أن تراكم الكثير من العباقرة توجب علينا أن نستنتج أن لزوم عنصر المرض النفسي كعامل جوهري في شخصية العبقري، بحيث إننا فرضنا استطاعة صاحبه التخلص فيه لكانت النتيجة المحتومة أن يفقد عبقريته. كما يذكر أن هناك من العباقرة شخصيات مريضة بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة و شخصيات أخرى تحمل عضواً مريضاً وسط حال من الصحة النفسية لا بأس بها، فكانه عنصر دخيل على نفس طيبة. و من النوع الأول مايكل انجلو و بايرون، و من النوع الثاني غوته و بسمارك. (٢)

و تؤدي العبقرية إلى الجنون (بمعنى الشذوذ الإحصائي) و لكن الجنون (الذي يتمثل في الاضطرابات العقلية) و المزاج الأقرب إلى الجنون، لا يؤدي إلى العبقرية. و إذا كان مزاج العبقري- أقرب في ظاهره- إلى الجنون، فإن عمله يعكس الإنسان في قمة صحته و سلامته، و إذا أصيب العبقري بالجنون فإن ذلك يؤثر تأثيراً سلبياً في عمله. (٣)

و لكن الأحكام المتصلة بوجود علاقة بين العبقرية و الجنون تتخذ طابعاً علمياً خادعاً، كما نلاحظ على ما يذكره (لا نج إيشباوم) حيث يرى أنه مع وجود رابطة ضرورية بين العبقرية

1- English & English Dictionary, Ibid 478

٢-د. مصطفى سويف: الأسس الفنية للإبداع الفني دار المعارف- القاهرة ١٩٥٩ ص ١٢٩

3- Jacobson, A. C " Literary Genius and Magic depressive Insamity" Medical Record, LXXX 11 (1912), 937-39 (Quoted Through Stein, m.i & Henze, sh, 1964) , P.P 346-347

و الجنون، فإن البحث في الطب العقلي قد أوضح أن الأصحاء من العباقرة يمثلون قلة ضئيلة. ويذكر أنه بينما نجد من ٠,٢% إلى ٠,٣ % من الجمهور العام في مصحات عقلية، و حوالي ٠,٥ % مصابين بأمراض عقلية، نجد نسبة من أصيب بالذهان مرة واحدة على الأقل في حياته من العباقرة- و كان قد جمع بيانات عن عدد يتراوح بين ٣٠٠ و ٤٠٠ شخص- تتراوح بين ١٢ % و ١٣ %، أما إذا اقتصرنا على أعظم الأسماء و تبلغ ٧٨ شخصاً، نجد أن أكثر من ٣٧ % منهم كان ذهانياً مرة واحدة في حياته، و أن ٨٣ % كان سيكوباتياً، أي لديه- فيما يرى لانج- استعداد جبلي للاضطراب العقلي، و يتميز بالعصبية، و اختلال الاتزان، و الشذوذ الذي يتخذ أحياناً صورة الجنون، و أن حوالي ٦,٥ % منهم فقط كانوا أصحاء، أما إذا اقتصرنا على أعظم ٣٥ عبقري، فإن نسبة الأشخاص المرضى تزيد فيبلغ الذهانيون ٤٠ % و السيكوباتيون أكثر من ٩٠ % و الأصحاء ٨,٥ %. (١)

إن الفرق بين العبقري و المجنون هو أن الأول يستطيع أن يلجم جنونه عن طريق الإبداع، عن طريق إنجاز عمل خارق، في حين أن الثاني لا يستطيع أن يتوصل إلى ذلك رغم كل محاولاته اليائسة فيغطس في متاهات الجنون.

و تختلف ديناميات سلوك العبقري الذي تتجه محاولته إلى تغيير الحواجز التي تعترض سعيه لبلوغ هدفه في مستوى الواقع عن ديناميات السلوك في حالة المريض بالذهان الهذائي الذي يتجه إلى التغيير في مستوى خيالي، فإن تشابه مظاهر الصراع لدى كل من العباقرة و الفصاميين- أي المصابين بالفصام- برغم اختلاف ديناميات سلوك كل منهما، أغرى البعض و من بينهم كرتشمر بالخلط بين العباقرة و الفصاميين أو بالدقة أشباه الفصاميين. (٢)

و إذا تغاضينا عن دقة تمثيل الحالات التي استشهد بها الجمهور العباقرة- و هي مسألة تشكك في القيمة العلمية لنتائجه، و أخذنا في الاعتبار أن إصابة العبقري بالذهان مرة واحدة طوال حياته لا يمكن أن تكون في ذاتها دليلاً على ارتباط العبقرية بالجنون، إذ إن الإصابة قد تكون تالية

1- Lang, Eichbaum, W: the Problem Of Genius. Translated by Paul, E. & Paul, C. New York 1933 (Quoted through, Stein & Henze, S Creal and individual P.P 348-349

٢- مصطفى سويف: الأسس النفسية للإبداع الفني مرجع سابق ص ١٢٧-١٢٨

على الإنتاج العبقري أو الإبداعي، مما يوحي- على العكس- بأن اهتزاز البناءات القديمة المألوفة يجعل العبقري يواجه مقاومات الآخرين التي تعرضه لأنواع من الاضطراب الشديد. إذا أخذنا هذا في اعتبارنا أمكننا أن نستنتج صعوبة وجود ارتباط بين العبقرية و الجنون أو صعوبة تصور أن العبقرية تعتمد في ازدهارها على أنواع الاضطراب العقلي و النفسي. (١)

لقد بقي السؤال قائماً: هل الإنسان المبدع الذي نفذ إلى حيز اللاشعور مريض نفسياً؟ إن الدراسات أثبتت أن ٩٠ % من العباقرة كانوا يعانون من اضطراب عقلي أو نفسي، إلا أن ارتباط العبقرية بأمراض عصابية ليس ضرورة حتمية، فعنصر المرض لا يعني بالضرورة أن المرض سبب و العبقرية نتيجة، بل قد تعني و بنفس القوة أن العبقرية في احتكاكها مع بيئة اجتماعية قاسية جامدة هي السبب. و قديماً قيل (العبقرية ترتمي عند عتبات الفقراء) و إنما من الألم ينبع الأمل، فالفنان المبدع يتعارض وجوده مع الوجود الاجتماعي، فيحاول تثويره بالكلمة، بالريشة، و بقدر ما يغوص في قرارة نفسه، بقدر ما يلامس آمال ذلك المجتمع في خضم لا شعوره الجمعي.

و من دلائل الصحة النفسية وجود توازن بين الصورة الذاتية و الصورة الاجتماعية والصورة الإنسانية. و هناك الكثير من المبدعين الذين يعيشون في الصورة الاجتماعية و ينسون الصورة الذاتية و الصورة الإنسانية، و المقصود بالصورة الاجتماعية كيف نريد أن يرانا الناس و نقوم بتمثيله.

و قد فقد الكثير من العباقرة توازنهم الاجتماعي بأعين الناس نتيجة تصرفاتهم الاجتماعية. فقد كان الشاعر البريطاني بايرون كتلة قلق متحركة، و كان يعتقد أنه يبدع و يكتب بشكل رائع إذا كان في حالة توتر عالية جداً، كذلك كان الكاتب الأمريكي ارنست هيمنغواي قلقاً بطبعه، و عبر الرسام فان غوغ عن قلقه الشديد في عدد كبير من لوحاته، كما كان الفيلسوف نيتشه يردد دائماً مقولته الشهيرة (عش في قلق)، و كان انيشتين لا يتوقف عن التوتر دائماً و كان يحاول تهدئة نفسه بالمشي في الحدائق لمدة نصف ساعة يومياً.

و لكن الناس يقتدون بالعباقرة إلى حد الجنون معهم، و لنا مثال على ذلك.

حين كتب اونيسكو مسرحيته الأولى (المغنية الصلعاء) تردد في أن يقدمها للتمثيل على

١- د. يوسف مراد: مجلة علم النفس- القاهرة مرجع سابق

خشبة المسرح، و ذلك لأنه شك في أنها قد تحظى بقبول أي فرد آخر غيره. و قد كان هو نفسه مبتهجا و راضيا عندما اكتشف أن الجمهور قد تعامل مع هذه المسرحية باعتبارها مسرحية طريفة ومرحة. و هكذا استطاع أن يفهم- على نحو واضح- إن التخيلات الخفية التي خشي منها قد تكون نشأت من حالة خاصة مؤقتة من الجنون كانت موجودة في وقت معين. (١)

التحليل النفسي للدكتاتورية

ترتكز السياسة الدكتاتورية في الحكم على أساليب متعددة لكي تضمن الانفراد بصنع القرار و وحدانية التوجه لحركة الشعوب. و قد تسير هذه السياسة في محور رئيسي يدور حول الشمولية وحق الفرد الواحد في تحديد المصير و انعزال السلطة عن القاعدة العريضة و التأليه الذاتي الذي يعطي كل الحق لغير صاحب الحق و كل المكاسب لمن لا يستحقها.

و تنهج الأساليب الدكتاتورية السبل المختلفة، منفردة أو مجتمعة، و تحت ظروف خاصة أو عامة و في اتجاهات متشابكة بحيث يغذي كل منها الآخر فيتم بذلك تعزيز خطواتها و تأكيد وجودها و ضمان استمرارها، و هذه الأساليب قد تمتد بجذورها من مجرد تكميم الأفواه و قطع الألسنة و صم الآذان أو قصف الأقلام و مصادرة منابر الكلمة المكتوبة، أو تمتد إلى أبعد من ذلك فتصل إلى درجة تحديد الإقامة أو الزج في غياهب السجون أو العزل في المنفى، ثم يأتي البعد الرهيب اللا إنساني و اللا أدمي في قطع الرؤوس و تصفية الأجساد. و مع تطور الزمن و تقدم الحضارات للشعوب و تغير لغة و مفاهيم الحياة العصرية، فقد بزغت شمس الحرية و حقوق الإنسان ليرتفع معها شعار الديمقراطية فانطفأت بذلك مصابيح الدكتاتورية بعد أن فقدت كل مقوماتها و تداعت كل أركانها. و شاهدنا الانهيار الجسيم لصروح الدكتاتوريات العالمية الكبرى و في فترات زمنية قياسية، و لم يتباك عليها أحد سوى أصحاب المصالح الذاتية و هم قلة من البشر يفضلون دائماً السير عكس حركة التاريخ و في الاتجاه المضاد لحقوق الإنسان و تقدم الشعوب.

و مازال إلى الآن من يطغى في الأرض بنزعته الهتلرية و ينصب نفسه الإله الأعظم صاحب الحق في أن يهب الحياة أو يسلبها بأزهاق أرواح النـــاس وهو حـق المرض داخـل النفـس

١- جلبين ويلسون. سيكولوجية فنون الأداء ترجمة د. شاكر عبد الحميد سلسلة عالم المعرفة الكويتية رقم ٢٥٨ ص ٣٩

المريضة، و قد أصابت معها كل جوانب العقل و الوجدان، فأعمت الصدور و القلوب و الأبصار وماتت الضمائر حتى كادت أن تصل إلى الدرك الأسفل.

و قد يبدو غريباً إذا قلنا عن مرض الدكتاتورية السياسية التي تصل إلى درجة التصفية الجسدية يجمع من بين أعراضها حالة من الخوف الكامن داخل نفس الطاغية الأوحد، و أن الغطرسة و الجبروت يعكس الكم الهائل من الفزع و الخوف المستتر، و هنا يبدو جلياً درجة الانشقاق والتمزق التي يعيشها الدكتاتور و التي تنذر و تنبئ بالانهيار النفسي المرتقب في أية لحظة. (١)

و تتوافر في المرض السياسي لدكتاتورية التصفية الجسدية كل أعراض غياب الوعي والإدراك السليم لأمور الحياة و طبيعة حركة التاريخ، و هو مرض العزلة السياسية و التقوقع داخل النفس المليئة بالشرور و روح الانتقام، و من أهم أعراضه الكبرياء و التجبر و الطغيان و السعي فساداً في الأرض نحو مصالح و مكاسب ذاتية و ليأتي الطوفان من بعد صاحب المرض.

السلطة كالخمر تغير في شخصية و تركيب الإنسان، و الذي يملك السلطة يتحول إلى إله.

و في كل بلاد العالم لا تزيد مدة الإنسان في السلطة أكثر من دورتين لأكثر من ثماني سنوات، و أي شخص يستمر أكثر من هذا يصبح لديه نوع من الإحساس بالعظمة و عدم قبول النقد و يكون كل همه هو الاستمرار في المنصب و هذا أمر لا يحدث إلا في البلاد النامية، و لا شك أن السلطة غير المعقولة و بدون معارضة أحد غيرت في شخصيات الكثير من الحكام. و قد قيل إن من يعيش تحت الأضواء و يذوق طعم الشهرة و النجاح لسنوات طويلة من الممكن أن ينهار نفسياً إذا فقد كل ذلك.

و يرى سقراط أن المستبد أسير في سجن، لأنه نهبة لعديد من أنواع الرعب و لأمور يتطلع إليها من كل نوع. و على الرغم من أن نفسه طماعة و فضولية، فهو المواطن الوحيد الذي يمنع من السفر و النظر إلى جميع الأشياء التي يرغب كل رجل حر في أن يراها. و هو يدفن نفسه في بيته، و في أغلب الأحيان يحيا حياة المرأة، و هو يقيناً يحسد جميع المواطنين الآخرين، الذين يرحلون للخارج و يرون المناظر العظيمة. و ما دامت هذه هي حاله السيئة، فهو يحصد أكثر محصوله من البؤس. و هو بحكم تكوينه الباطني الشرير، تبدو حالة الدكتاتور شقاء محضاً، و هو في

١- صحيفة الأهرام- القاهرة ١٩٩٦/٣/٦ د. يسرى عبد المحسن

الحق عبد، بشكل بغيض إلى أقصى حد، و إن بدا حراً. و بدلاً من إشباع أصغر رغباته، فهو في حاجة قصوى لأشياء عدة. و هو في الحق معدم في نظر من يعرف كيف يتأمل النفس كلية. و هو بسبب قوته، يزداد حسداً، و يكون حاكماً عديم الإيمان و الأصدقاء، دنساً و مرضعاً لكل رذيلة.

إن الدكتاتوريين لا يعرفون الحكمة و الفضيلة، و يقضون وقتهم في ولائم و متع دائمة مماثلة، يحملون إلى أسفل، و يعودون ثانية إلى منطقة المنتصف في طريق الصعود، و بين هذين الحدين يهيمون طوال حياتهم، دون أن يتخطوهما لينظروا إلى أعلى، و بذلك لا يحملون إلى منطقة المعرفة الحقة، و لا يؤمنون أبداً بما هو حق، أو يتذوقون اللذة المؤكدة الصرفة، فهم كالأنعام، ينظرون دائماً إلى أسفل، و يحنون رؤوسهم للأرض، متطلعين إلى موائدهم، بينما هم يرعون ويسمنون و يتناسلون، و لأجل أن يشبعوا رغبتهم الطماعة في هذه المتع، يرفسون و يضربون بحوافرهم و قرونهم الحديدية حتى يقتل بعضهم بعضاً، بتأثير الشهوات الجشعة. و هكذا يملأون جزء طبيعتهم غير الحقيقي بالأشياء غير الحقيقية. و يتبع هذا، أنهم يقترنون بملذات مختلطة بالألم، هي مجرد أشباح و خطوط نشوية للذة الحقيقية، ملونة بألوان تباين الألم تبايناً بسيطاً، بحيث يبدون في كل حالة عظماء، إلى حد التبذير، و يحدثون في صدور البلهاء شعوراً مهتاجاً للتعلق بهم. (١)

و من خلال النص السابق الذي كتب قبل ألفي عام نرى كيف كان ينظر إلى حالة الدكتاتور و انعكاس سلطته على نفسيته.

و قد ابتكر خيال الشاعر كيلنغ في (الرجل الذي كاد يصبح ملكاً) شخصية مغامر بسيط استطاع بفضل قوة شخصيته وحدها أن يسيطر على عدد من القبائل و أصبح رئيساً عليها، و لكنه فقد هيبته و تاجه عندما ضعف لدرجة الوقوع في حب امرأة من رعاياه سمح لها بأن تعرف أنه ليس أكثر من رجل. (٢)

و إحدى النظريات في العلوم الإنسانية تربط التوق الذي لا حدود له للوصول إلى السلطة بالطفولة المحرومة من الحب الأمومي. و تدعي نظرية أخرى أن الإنسان الذي ترعرع في ظل أم

١- نظلة الحكيم، محمد مظهر سعيد : جمهورية أفلاطون دار المعارف- القاهرة ١٩٦٣ ص ١٦٥

٢- اندريه موروا: فن الحياة ترجمة أحمد فتحي كتاب الهلال- القاهرة رقم ٣٤٥ ص ٢١

مسيطرة، يميل بصورة عامة نحو الأفكار اليسارية الإنسانية و نحو الأفكار الليبرالية. في المقابل فإن الإنسان الذي ترعرع في ظل أب مستبد يميل نحو تطوير شخصية تعتمد على الذات، من مميزاتها المحافظة و التعصب القومي و التصلب في أساليب التفكير و النزعة الاحتكارية.

و يرى فرويد أن في كل إنسان ميلاً إلى غدارة الحياة باللذة، و ميلاً في الوقت نفسه إلى تدمير ذاته كأنما استبد به دُوار. و لكن ما من إنسان يجرؤ أن يجابه الموت وجهاً لوجه: فالموت يدفع و يجذب في آن واحد معاً. و كذلك ينقل الإنسان إدارة تدمير نفسه إلى غيره، و ما العدوان إذن، أي ما ميل الإنسان إلى تدمير غيره إلا نمرة بين تاناتوس و ايروس في نفسه، صراع يحاول فيه تاناتوس أن يخنق ايروس، فيحل الشخص الصراع بتحويل غريزة الموت على غيره، بصب الموت على الآخر.

و تنشأ الدكتاتورية و العنف و التسلط و الاستبداد- و هي عوامل واضحة من عوامل الصراعات السياسية- عن ظاهرة تعويض. و التحليل النفسي يلح كثيراً على ما تتصف به الغرائز والعواطف من التباس و تناقض.. إنه يرى أن الشبق يمكن أن يكون ثمرة قوة جنسية، كما يمكن أن يكون ثمرة عجز جنسي يدفع بصاحبه إلى تأكيد نفسه في هذا الميدان إخفاءً لنقصه. و كذلك الرغبة في السيطرة و الميل إلى التسلط يمكن أن يكونا ثمرة إرادة القوة لدى فرد ذي طاقة طافحة و عزم شديد، كما يمكن أن يكونا على خلاف ذلك ثمرة ضعف نفسي و بلبلة داخلية، ثمرة عجز الفرد عن السيطرة على نفسه وعن فرض احترامه على الآخرين، فيختبئ هذا العجز وراء الموقف المتناقض تخفياً وتستراً.

و يرى آدلر، عالم النفس الشهير، أن الوحشية و الاستبداد كثيراً ما يكونان تعويضاً فعالياً عن الشعور الأليم الذي يحسه أشخاص أوتوا قامة قصيرة أو جسماً سيئ التكوين (حيث كان أكثر الدكتاتوريين قصار القامة: قيصر، نابليون، هتلر، ستالين، موسولونيني، فرنكو و غيرهم). ويذهب آدلر أيضاً إلى أن الميول الاستبدادية ميول أساسية. و يرى أن غريزة السيطرة هي المحرك الأساسي للإنسان، و هو يُحل هذه الغريزة محل (الليبيدو) أو حاجة اللذة في نظرية فرويد.

و من الشائق أن نشير هنا إلى ذلك الاستقصاء الشهير الذي أجراه ت. آرنودو في الولايات المتحدة الأمريكية سنة ١٩٥٠، عن (الشخصية الاستبدادية). لقد بيّن هذا الاستقصاء أن الموقف المحافظ في ميدان السياسة يرتبط بطراز معيّن من البنية النفسية. إن الشخصية الاستبدادية هي الشخصية التي تتصف باتصياع أعمى للقيم التقليدية ، هي الشخصية التي تتصف بإذعان أمين

للسلطات، بنظرة إلى العالم الاجتماعي و الأخلاقي تقسم هذا العالم إلى جانبين منفصلين تمام الانفصال (الخير و الشر، الأسود و الأبيض، الطيبون و الخبثيون) و تجعل كل شيء في هذا العالم واضح المعالم بيّن الحدود منظم الجريان، يستحق الأقوياء أن يقودوا لأنهم هم الأخيار و يستحق الضعاف فيه أن يخضعوا لأنهم دون أولئك من جميع النواحي، و لا تقاس أقدار الناس فيه إلا بمقاييس خارجية قائمة على منزلتهم الاجتماعية. (١)

و قد أضيف إلى الاضطهاد النفسي الذي يرجع إلى إدارة القوة لدى الدكتاتوريين اليوم، اضطهاد من نوع اجتماعي، ناشئ عن تطور بنى السلطة. إن توسع الجهاز الحكومي يؤدي إلى ازدياد عدد الذين يتخذون القرارات باسم الدولة.

و دائرة الحاكمين تتسع، أي أن عدد الأشخاص الذين ينبغي للمواطنين أن يطيعوهم يزداد. فبدلاً من مستبد واحد و عدد من أتباعه نجد هنالك عدداً كبيراً من المستبدين الصغار. صحيح أن الميدان الذي يعمل فيه كل واحد منهم ميدان محدود، و لكن ضعفهم جميعاً يؤدي إلى شل حرية حركة الناس، حتى ليصبح المرء أشبه بـ (جوليفر) الذي كانت تشده إلى الأرض ألوف الروابط الصغيرة التي لا يعد كل منها شيئاً ذا بال، و لكنها بكثرة عددها ترهقه من أمره عسراً.

و أعوان الدكتاتور الذين ساروا في دربه هم مازوشيون بفطرتهم، اعتادوا أن يكونوا في موضع الضعف و الهوان، يتلقون الضربة فيستشعرون باللذة و الانتشاء، و لهوان نفسياتهم فإنهم يبدون كل بشاعتهم تجاه الآخرين متعالين عليهم، مسفهين أفكارهم، متعاظمين بنفوسهم، محتقرين للعقل، منساقين للرغبات، ليسوا مركزين في قراراتهم وبقدر خنوعهم لرغبة الدكتاتور فهم يعوضون عن نقصهم باستعباد غيرهم من خلال شخصياتهم المريضة.

و مثل هذه الشخصيات، و بقدر ما تظهر تأييدها للدكتاتور، فهي سرعان ما تتخلى عنه حين يضعف حكمه و تسوء أحواله، فتبادر إلى أن تأخذ موقفاً بيناً بين السلطة و المعارضة وبطريقة مكيافيلية حتى تحفظ (خط الرجعة).

و يقول ليونارد بندر: إن الخط الثاني، أو الطبقة الثانية، هي الأداة الوسيطة الضرورية التي بدونها لا تستطيع الطبقة الحاكمة أو القلة الحاكمة أن تحكم. و تمتد الوظيفة السياسية للخط

١- موريس دوفرجيه. مدخل إلى علم السياسة ترجمة د. جمال الأتاسي، د. سامي الدروبي دار دمشق- دمشق ص ٤٣- ٤٤

الثاني من التمثيل، مروراً بالاندماج الصريح مع الحكم، و وصولاً إلى ممارسة السلطة. (١)

و يشير الكاتب نفسه استناداً إلى رأي (مُسكا) المعدل قليلاً إلى أننا (يجب أن نتذكر أن الخط الثاني، أو الطبقة الثانية، ليست هي الطبقة الحاكمة. إن الطبقة الثانية لا تحكم و لكنها الطبقة التي بدونها لا يستطيع الحكام أن يحكموا). (٢)

إن كل منظمة كبيرة يتمتع فيها الرجال و المسيطرون بقوة ضخمة يوجد فيها رجال أو نساء أقل بروزاً من هؤلاء الرجال و لكنهم يكتسبون نفوذاً على الزعماء بوسائل شخصية. و ينتمي إلى هذه الفئة المحركون من وراء الستار ذوو النفوذ في الأحزاب، و لو أن طريقتهم في تحقيق أغراضهم مختلفة، فهم يضعون أصدقائهم في المراكز المهمة دون ضجة. و هكذا يسيطرون على المنظمة مع الوقت.

و قد يراود الأمل مثل هؤلاء الرجال في أن يخلفوا الدكتاتور عندما يموت إذا لم تكن الدكتاتورية وراثية، ولكنهم في العادة يفضلون ألا يظهروا فوق المسرح، وهم رجال يحبون السلطة أكثر مما يحبون المجد، و كثيراً ما يكونون خجولين من الناحية الاجتماعية. و أحياناً يكون بهم مانع يحول بينهم و بين تولي الزعامة الشرعية كما هو الحال مع (الأغوات) في قصور سلاطين الشرق و خليلات الملوك في البلاد الأخرى. ويبلغ تأثيرهم أقوى درجاته عندما تكون السلطة الرسمية وراثية، و يكون أقل ما يكون السبيل إلى الحصول على السلطة هو الكفاية الشخصية و العمل. و مع ذلك فإن مثل هؤلاء الرجال يتمتعون حتماً بقدر كبير من السلطة في الدوائر التي يعتبرها الرجل العادي غامضة حتى في أحدث صور الحكم. ففي عهد القيصر وليم الثاني كان البارون هولشتاين (الوزير الدائم لوزارة الخارجية الألمانية) يتمتع بقوة هائلة على الرغم من أنه لم يظهر أمام الجماهير. (٣)

1- Leonard Brinder, In a moment of Enthusiam: Political Power and the second stratum in Egypt (Chicago, 111 University of Chicago Press, 1979) P . 12

2- Leonard Binder, Ibid P. 26

٣- برتراندرسل: القوة ترجمة عبد الكريم أحمد مكتبة الانجلو المصرية- القاهرة ص ٣٤

و يختار الدكتاتور لحاشيته الفاسدين من البشر ليكونوا له أصدقاء، فهم عبيد النفاق والتملق، و الدكتاتور تسره المداهنة، و ينتشي من النفاق، و يريد من يتملقه. و لن نجد إنساناً حراً شريفاً يقدم على مثل هذا العمل. فالرجل الخيّر يمكن أن يكون صديقاً، لكنه لا يمكن تحت أي ظرف أن يكون مداهناً أو متملقاً. أما الرجل السيئ فليس لديه الاستعداد للقيام بهذا الدور فحسب، و إنما يراه يسعى إليه.

و من عادة الدكتاتور ألا يحب رجلاً ذا كرامة، أو رجلاً شريفاً ذا روح عالية أو صاحب شخصية مستقلة. ذلك لأن الدكتاتور يدعي أنه يحتكر لنفسه هذه الخصال الحميدة. و من ثم يشعر أن أي إنسان شريف صاحب كرامة إنما يزاحمه في الجلال و الإباء، أو أنه يحرمه من التفوق والسيادة، فذلك اعتداء على سيادته بوصفه طاغية. و من ثم فإن الطاغية يفضل صحبة الأجانب و الغرباء على صحبة مواطنيه، و لهذا يدعوهم إلى مائدته، و إلى لقائه، و يأنس لهم في حياته اليومية. و هكذا يصبح المواطنون أعداء، و أما الغرباء فلا خطر منهم لأنهم لا ينافسونه و لا يزاحمونه. (١)

التحليل النفسي للبارانويا

يتمتع مريض البارانويا أحياناً- بذكاء فطري و بصيرة جنونية و عقل مختل البنيان، وبذلك يستطيع تحاشي النقد و التصحيح، فيخفي أعراضه المرضية و يحتفظ داخله بكتلة من الضلالات الفكرية. و هذه الكتلة الجنونية الداخلية تشكل مصدر عزته و عذابه، و هي أساس كيانه و عماد روحه. و أي مساس بهذه الكتلة المصمتة الهشة هو بمثابة تهديد كامل لوجوده و أي انتقاص منها يشكل بداخله توتراً و غضباً ناريا.

أما إذا كان خطر الانهيار يهدد مملكته الوهمية فإنه يدافع عن معبده الجنوني بطريقة (شمشونية) و هي الانتحار أو القتل أو الاثنان معاً. (٢)

و في التحليل النفسي لمريض البارانويا نراه يبني بداخله تدريجياً معماراً هائلاً من الأفكار الوهمية و يتم ذلك سراً و على مدى زمني طويل، و يكون عماد هذا البنيان و محوره قائماً على فكرة

١- د. إمام عبد الفتاح إمام: الطاغية سلسلة عالم المعرفة الكويتية رقم ١٨٣ ص ١٤

٢- صحيفة الأهرام- القاهرة ١٩٩٧/٩/٢٤ د. محمد الدسوقي

عظمة الذات و مكانتها الشامخة فينسج حول نفسه هالة من القدرة الكلية و المواهب النهائية، كأن يعد نفسه خارق الذكاء و شاعر و موسيقي و مطرب و ممثل و مجاهد و داعية ديني و خليفة للسماء على الأرض.

و يستجمع هذا النسيج أو البنيان من تحويل لا شعوري دائم لأحداث الحياة اليومية، فكل كلمة أو إشارة يفسرها خطأ بشكل يدع أو يتماشى مع تضخم الذات.

و لحاجة المريض بالبارانويا إلى استمرار وجود اجتماعي بين الناس و إلى حماية بنيانه الضلالي الداخلي، فإن دوافعه الأساسية تتظاهر في أغلب الأحيان بعكس ما تخفي أو يضمر في نفسه حتى يستطيع ركوب الآخرين لتحقيق هدفه الأوحد و هو إثبات صحة البنيان الضلالي و الإحساس بنشوة قوة الإرادة البالغة. و لكي يحقق المريض مزيداً من النجاح في ذلك فإن عقله الجنوني يلتقط أي فكرة متطرفة حتى تضفي على أوهامه سخونة و بريقاً و جاذبية.

و يعيش البارانويي في عالم خاص به، أوجده لنفسه، عالم يستطيع به أن يعبر عن نفسه بشكل مريح دون حساب راحة الآخرين، و دون الاهتمام بوجودهم أو وزنهم.. يأخذه تعظيم الذات إلى أنه لا يرى غير نفسه في هذه الدنيا بكل شذوذه و آفاقه، و جنونه و خياله. لهذا نرى في هذه الشخصية كل المتناقضات.. العبقرية و الجنون، الدكتاتورية و الفردية. نماذج مختلفة تجمع بعضها البعض لتشكل عالم الظواهر الغريبة في نسيج المجتمع.. هذا النسيج الذي يسعى إلى معاملة الفرد نداً للآخر و إلى بسط الديمقراطية، و هي تطلعات تخالف منطق البارانويي.

إذن في شخصية الدكتاتور الكثير من المتناقضات، يشوبها خلط بين الحقيقة و الخيال، قد يدرك الشخص نقائصه فيشعر بالدونية و من ثم يعمل على تعويض هذا النقص. و يشير (أدلر) إلى أن المجتمع لسوء الحظ أحياناً ما يعزز هذه النقائص التي يحس الفرد بها. و اعتقد أدلر أنه حيثما يحدث هذا فإن الشخص حينئذ قد تنمو لديه عقدة النقص أو الدونية.

و قد يكون الشعور بالنقص حقيقياً، أي يكون إحساساً بنقص قائم بالفعل، و قد يكون متصوراً، أي الإحساس بنقص غير موجود في الواقع. و أي من نوعي النقص قد يدفع الشخص إلى محاولة التعويض و اللجوء إلى السيطرة.

إن تأثيرات الدكتاتورية كثيرة على من يعانيها و النتيجة هي واحدة، إنها تؤدي حتماً إلى التأخر و الانكماش، و إلى الخرف و التشبث بالمعتقدات مهما تكن سخيفة، و الطاعة العمياء لأولي

الأمر عن جدارة أو غير جدارة، و إلى رفض جانب من المجتمع بسبب ما يصدر عنها- في الغالب- من سلوك شاذ لا يتسم بالعقل و الروية.

المرأة و دكتاتورية الرجل

الكثير من الكتاب ينسبون (دكتاتورية) ما من الرجل على المرأة بحكم الوضع القانوني له، و ذلك طوال حقب التاريخ، و بالتالي فإن المرأة تبدو المخلوقة المغلوب على أمرها، و بالتالي، تعاني من (أعراض نفسية).

و لكن القوة البدائية المتفوقة للذكور من الحيوانات على الإناث، لا تؤدي في معظم الحالات إلى عملية إخضاع مستمرة من الذكور لإناثها، و ذلك لأن الذكور لا تملك الثبات الكافي في أهدافها. و يكون إخضاع النساء بين المخلوقات البشرية، أكثر كمالاً في مرحلة معينة من مراحل الحضارة، منها بين البدائيين من الناس. و تكون الأخلاق دائماً دعامة لهذا الخضوع، و يقول القديس بولس إن الرجل (هو صورة الله و مجده، و أما المرأة فهي مجد الرجل، لأن الرجل ليس من المرأة بل المرأة من الرجل، و لم يخلق الرجل لأجل المرأة بل المرأة لأجل الرجل)- رسالة القديس بولس الأولى إلى أهل كورنتس، الفصل الحادي عشر، الفصل ٧-٩. و من هذا يظهر أن على الزوجات إطاعة أزواجهن، و أن الخيانة الزوجية، خطيئة أكبر عند المرأة منها عند الزوج. و من الحق أن يقال إن المسيحية، تجعل من الزنى من الناحية النظرية، خطيئة متساوية بالنسبة إلى الجنسين، طالما أنها خطيئة ضد الله، و لكن هذا الرأي لم يطبق من الناحية العملية، و لم يكن من الناحية النظرية أيضاً، سائداً في العصور التي سبقت المسيحية. و كان الزنى مع المرأة المتزوجة خطيئة بالغة الشر، لأن الإساءة فيها موجهة إلى زوجها، و لكن الإناث من العبيد و أسيرات الحرب، كن ملكاً شرعياً لسيدهن، و لم يكن عليه لوم إذا ما اجتمع إليهن جنسياً. و كان مالكو العبيد حتى من أتقياء المسيحيين يحملون هذا الرأي، و لكن زوجاتهم لم يكن يشتركن معهم في هذا الرأي حتى في أمريكا القرن التاسع عشر.

و تقدم شرائع حمورابي شرحاً ممتعاً عن اللا أهمية التي كانت تحتلها النساء في عيني المشرع العظيم، فلو ضرب رجل ابنة رجل آخر، و كانت حبلى، فماتت من أثر الضربة، فإن الشريعة المذكورة تنص على وجوب إعدام ابنة الضارب. و قد تكون هذه الشريعة عالة بين الرجل الضارب، فالابنة التي ينفذ فيها حكم الإعدام ليست إلا مجرد شيء يملكه الرجل الآخر، و ليس لها من حق في

الحياة يخصها وحدها، و في قتل الضارب لابنة الرجل، جريمة ارتكبها لا بحق الفتاة القتيل، بل بحق الرجل نفسه، و ليس للبنات من حقوق لأن ليس لهن من سلطان. (١)

و يمكن تحديد الأنماط القطبية الأربعة للذكور فيما يلي:

١- الأب و هو القائد و الحامي و المشغول بالحفاظ على القانون و النظام و الوضع الراهن.

٢- الابن و هو المشغول باهتماماته الشخصية، و المهتم قليلاً بالمسؤوليات الاجتماعية، و من ثم فهو يضع نفسه بالضرورة في مواجهة الأب.

٣- البطل و هو الشخص النشيط و الطموح و المهاجم و المكافح من أجل المكانة المتميزة في السياق الاجتماعي.

٤- الرجل الحكيم و هو الفيلسوف و المعلم المهتم بالأفكار بدلاً من الاهتمام بأفعال وشخصيات الأفراد.

أما الأنماط الأولية الأربعة للأنثى فهي:

١- الأم و هي مضحية بذاتها و مجمعة و مهتمة بالتغذية و تربية الأطفال و تكوين المنزل.

٢- المحظية و هي نقيض الأم و ذلك لأنها عشيقة خالدة، مهتمة بالاستحواذ على رجلها بالارتباط به بشكل شخصي واضح القوة، بدلاً من القيام بالدور المفترض المتعلق بالمسؤوليات الاجتماعية و المرتبط بدور الزوجة الأم.

٣- الأمازونة و هي امرأة مستقلة، متسمة بالنشاط، موجهة نحو هدف، تتحرك باعتبارها زميلة أو منافسة للرجل بدلاً من كونها زوجة أو أما أو عشيقة.

٤- الوسيطة و هي امرأة خارقة للطبيعة، مستبصرة (قادرة على رؤية كل ما يقع وراء حدود البصر العادي) منغمسة في خبرة ذاتية و تتحدث باقتناع عن معجزة ما. (٢)

١- برتراندرسل: السلطان ترجمة خيري حماد دار الطليعة- بيروت ١٩٦٢ ص ٢٥٨

٢- جلبين ويلسون: سيكولوجية فنون الأداء ترجمة شاكر عبد الحميد سلسلة عالم المعرفة الكويتية رقم ٢٥٨ ص ٧٧و ٧٩ مرجع سابق

النظرة الدونية للمرأة

هناك تناقض غريب بين نظرة الرجل الدونية للمرأة في المجتمع العربي و التي تحمل معها (نقصان الإدراك و العقل) ثم وضع شرف الرجل بل شرف العائلة كلها في هذا المخلوق الناقص. فنحن نلاحظ بتتبع حياة الفتاة منذ ولادتها أنها تولد غير مرحب بها في أغلب الحالات، ثم تعيش طفولتها ككم شبه مهمل و تابع كلياً للبيت، و ما أن تصل إلى سن البلوغ حتى تتركز عليها الأضواء فجأة، و تختلف معاملة عائلتها لها كلياً. فيصدر رب البيت (فرماناً) يتضمن مجموعة من القوانين التي تقيد حركاتها داخل البيت و خارجه تمنعها من الاختلاط مع أترابها من الصبيان، كما أنه يحدد أنواع ملابسها و خاصة أطوالها و ربما ألوانها و الفتحات المسموح بها.

إن المرأة رغم منزلتها الدونية سواء ذهنياً أو إنتاجياً إلا أنها تشكل عنصر الاستمتاع الأساسي بالنسبة للرجل خاصة في المجتمع الذي تنعدم فيه وسائل المتع الأخرى، مضافاً إليها الدوافع الجنسية، مما يحول المرأة في نظر الرجل إلى عنصر استمتاع جنسي و آلة توليد و مدبرة للبيت تقوم بشؤونه المختلفة. (١)

و جاء في سورة النساء الآية ٣٤

الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض و بما أنفقوا من أموالهن، فالصالحات قانتات حافظات للغيب بما حفظ الله، و اللاتي تخافون نشوزهن فعظوهن و اهجروهن في المضاجع و اضربوهن، فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا.

و قد قرر القرآن بصورة قاطعة أن الرجل مساو لاثنتين من النساء في الميراث و الشهادة، فقد جاء في سورة البقرة، الآية ٢٨٢ (و استشهدوا شهيدين من رجالكم فإن لم يكونا رجلين فرجل و امرأتان ممن ترضون من الشهداء أن تضل إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى) و في سورة النساء الآية ١١، قال تعالى (يوصيكم الله في أولادكم للذكر مثل حظ الانثيين). و قيل في تعليل الآية الأولى إن وجدان المرأة (أقوى مظاهر حياتها النفسية.. و قوة ناحية الوجدان لدى المرأة تجعل عاطفتها تطغى أحياناً على ما وصل إلى إدراكها و تمتزج بعناصره، فتشكله صورة أخرى و تغير

١- سلوى الخماش: المرأة العربية و المجتمع التقليدي المتخلف دار الحقيقة- بيروت ص ٧٤

كثيراً من حقيقته من حيث لا تشعر هي بذلك). (١)

إن جسد المرأة اكتسب وضعية خاصة في النظام القيمي التقليدي، بسبب التقسيم النوعي للعمل و حصر دور المرأة في العمل المنزلي و إنجاب الأطفال، مع كون العائلة هي وحدة التفاعل الاجتماعي في المجتمع العربي. فإذا كان جسد المرأة وسيلة لإنجاب أعضاء جدد لتجديد العائلة واستمراريتها، و إذا كانت العائلة وحدة للتفاعل الاجتماعي في مجتمع يعتمد خط النسب الأبوي لوضع الحدود بين عائلة و أخرى، فإن حماية جسد المرأة و التعامل معه باعتباره ملكاً لزوجها هو الوسيلة الوحيدة لضمان عدم اختراق الحدود بين العائلات و الحفاظ على العائلة كوحدة للتكوين الاجتماعي، أي لتوزيع الثروة و السلطة والمكانة الاجتماعية، و من ثم فإن حماية الجسد تعد مسؤولية العائلة كوحدة للتكوين الاجتماعي، أي لتوزيع الثروة و السلطة و المكانة الاجتماعية، ومن ثم فإن حماية الجسد تعد مسؤولية العائلة ككل. و يتم التعبير عن هذه الحماية قيمياً بقيمتي الشرف والاحتشام. أما الشرف فيعني بشكل أساسي حماية جسد المرأة. و على وجه الدقة، حماية جهازها التناسلي (الإنجابي) بحيث لا يسمح بالاتصال الجنسي إلا في إطار الزواج بما يضمن نقاء السلالة و وضوح الحدود بين العائلات، المنتسبة أبوياً. و من هنا تأتي أهمية (غشاء البكارة) كتعبير عن شرف المرأة الذي هو شرف العائلة، و أهمية تحريم و تجريم (الزنى) أيضاً. و أما الاحتشام كقيمة، فهو يعني في ما يعني، مجموعة من الإجراءات الوقائية الهادفة إلى الحفاظ على (الشرف) و من ذلك فصل الرجال عن النساء فيزيقياً و مكانياً، و فرض مواصفات خاصة كزي المرأة و سلوكها في اللحظات التي يستحيل فيها هذا الفصل. فزي المرأة يجب أن يلغي أي حضور لجسدها، و لهذا الغرض يجب أن يغطي أكبر جزء ممكن منه و ألا يسمح بظهور ملامحه حتى من تحت الغطاء باعتبار هذا الجسد فتنة تهدد شرف العائلة، و على المرأة أيضاً أن تتصرف بحياء فتغض بصرها ولا ترفع صوتها، و ربما يفضل ألا يسمع صوتها أصلاً في حضور الرجال كإجراء يستكمل منطقياً إخفاء جسدها و أنوثتها.

و الأوصياء على المرأة كثر، آخرهم الزوج و أولهم الأب، الأخ الأكبر، الأعمام أو الأوصياء، و احتمالياً أبناء العم، و هم يمارسون سلطة مطلقة على نساء و بنات العائلة، ثم يواصل ذلك، الزوج و عائلته. الشابة تنتقل من وصاية رجال عائلتها إلى وصاية زوجها بدون أن تعتبر في

١- د. علي عبد الواحد: المرأة في الإسلام. القاهرة ص ٥٧و ٥٨

يوم من الأيام راشدة حقاً، حتى و إن كان الشرع القرآني يمنحها الرشد عند البلوغ، و الشرع المدني في السادسة عشر أو الثامنة عشر أو الإحدى و العشرين حسب البلدان التي تخلت، على هذه النقطة، عن الشرع القرآني). إذا ما بأعظم الشجاعات، رفضت هذه الوصاية، فهي توضع في الاتهام- إن لم ترغم بالقوة على الرضوخ. (١)

و تعود هذه الوصاية في أساسها التربوي إلى أن الصغير الصغير، يربى من خلال العناية التي يحاط بها، و الحقوق اللامحدودة تقريباً التي تمنح له، لمجرد أنه صبي، و النرجسية التي كانت تنمى عنده، على نحو منطقي تماماً. إن تزويد قيمة ذكورته- و الذكورة بوجه عام- تؤدي عنده إلى (فحولة واجبة) تُشرط و تكيف مجموع سلوكه.

هذا الوضع جعل تقليدياً، الطلاق حقاً للزوج لا يُستلب. فقد كان يستطيع أن يطلق زوجته متى شاء، دونما الحاجة إلى تبرير قراره. أما المرأة فقد كان عليها، لكي تحصل على حل الزواج، أن تبرهن على صلاح طلبها، و هذا يفترض شجاعة نادراً ما تستطيع أن تدلل عليها.

ما من شيء يمنع رجلاً من اتخاذ قرار كهذا تحت ثورة الغضب، في حالة سكر، أو بعد فقدان السيطرة على الذات. أجل، إن طلاقاً من هذا النوع كان ينظر إليه نظرة سيئة بوجه عام، و كان محط شجب أخلاقي ما دام مستحيل التبرير. لكن لم يكن ذلك سوى معضلة وجدان، و الطلاق كان موضع اعتراف. حتى التهديدات بالطلاق كانت لها قيمة طلاق فعلي. (٢)

ما ذكرناه قبل قليل يتصل مرة ثانية بـ(قيمة الشرف) بمعناها الواسع في البلدان العربية بسلوك الفرد، و لكنها لا تقتصر عليه بل تمتد لتشمل (العائلة) كجماعة تتوحد فيها المسؤولية وتتماثل فيها الذات مع الجماعة. و على وجه التحديد، تربط هذه القيمة سلوك المرأة بشرف الرجل فتجعل من الرجل مسؤولاً عن هذا السلوك. و يرتبط الاقتسام بالشرف بدرجات متفاوتة لكون الشرف أوسع مجالاً في سلوك الفرد من الاقتسام. و مع ذلك فإن المظاهر الجنسية (Sexuality) هي المحور التي تتشكل حو له القيمتان. و لذلك يظل العزل الجسدي للمرأة، بل فصل مكان المرأة عن مكان الرجل و حصر المرأة في المنزل و استخدامها الحجاب الخ.... يظل تعبيراً عن احتشامها

١- جوليت منص: المرأة في العالم العربي دار الحقيقة- بيروت ١٩٨١ ص ٤٧

٢- = = = = = = = = = = = ص ٧٩ مرجع سابق

و حماية شرف الرجل، فالمرأة المحتشمة امتداد للرجل الشريف.

و إذا كانت قيَم الشرف و الاقتسام تتعلق بشكل أساسي- و إن لم يكن كاملاً- بالعلاقة بين الرجل و المرأة، و بشكل جسد المرأة محورها الرئيسي، فإن الطاعة لا تقتصر على طاعة المرأة لزوجها و أبيها و أخيها و قريبها، و إنما تشمل طاعة الصغار للكبار. و النظام القيمي السائد يعطي أهمية كبيرة لطاعة الزوجة لزوجها و الولد للوالد. و في هذا المجال يلعب الدين دور الوعاء الأيديولوجي المناسب إلى حد كبير، سواء بتجريم الزنا و هتك أعراض (المحصنات) أو بتجريم عقوق الوالدين، و جعل الطاعة ذات أهمية قصوى ليس فحسب في علاقة الزوجة بالزوج أو الابن بأبيه، و إنما أيضاً في ربط هذين النوعين من العلاقات بعلاقة الإنسان بالرب، و الأفضلية التي يمنحها الدين و النظام القيمي بشكل عام للمرأة المطيعة و الابن البار، تؤدي دوراً مهماً في إضفاء الشرعية على علاقات السلطة داخل النظام الأبوي و من ثم تعطي المبرر الأيديولوجي لاستمراره.(١)

تهميش دور المرأة

إن النظرة الدونية للمرأة و إخضاعها لسلطة الرجل المطلقة أوجد نوعاً من الدكتاتورية الذكورية و هو ما حاولنا شرحه. و هناك مفهوم شائع عندنا هو أن الحاكم (أب) كبير للكل، فيما أن وظيفة (الأب) في الأسرة هي عمل أخلاقي، أما (أب) الجميع فهو منصب سياسي يوصل في نهايته إلى الدكتاتورية.

و تهميش دور المرأة في الحياة بدكتاتورية هو نتيجة نظرة الذكر لها و هو ما فعله حنا مينه، الأديب السوري الكبير، تتكرر صورة المرأة السلبية و تغيب الصورة الإيجابية في جميع أعماله. فقد ورد في رواية (الثلج يأتي من النافذة) أن هناك شبهاً بين المرأة و النوم من حيث الدلال فـ (كلاهما تطلبه فيناى و تتركه فيقل).(٢) و إنه للمرأة في طبيعتها (ثار في عنق آدم منذ خطيئة حواء الأولى). (٣) و يقول في (المصابيح الزرق) إنه (إذا لم تكن المرأة و سادة لحم فلماذا هي

١- مجلة المستقبل العربي- بيروت العدد ٢٠٠ ١٩٩٥/١٠ ص ٨٠ ثريا التركي و هدى زريق

٢- حنا مينه الثلج يأتي من النافذة دار الآداب- بيروت ١٩٧٩ ط ٣ ص ٧٤

٣- = = = = = = = = = = = = = = ص ٧٤ مرجع سابق

امراة). (١) و في رواية (الباطر) أن (المرأة بنصف عقل أو بدون عقل، بل أقل من لا شيء مثل البطيخة، مثل المجدرة، إذا جعت أكلت منها و السلام). (٢)

و يصف حيدر حيدر نظرة الرجل الشرقي للمرأة فيمايلي: في اليوم الأول يتعرف العربي على امرأة، في اليوم الثاني يرغبها في سريره، و في اليوم الثالث تتحول إلى عاهرة في قاموسه الجنسي. (٣)

فيما نرى قاسم أمين لم يوجه اللوم إلى المرأة، بل على العكس، وجهه إلى الرجل (لا لوم عليها، و عذرها أنها ليست حرة.. بل اللوم كل اللوم على الرجال). (٤)

إن طبيعة العملية الاجتماعية- النفسية- الثقافية التي تكوّن في نهايتها المرأة العربية صورة الذات تساهم مساهمة كبيرة و مباشرة في استمرارية النظام الأبوي. و الحقيقة إن عوامل هذا الاستمرار التي ترتبط بالتحديث- كما و كيفاً- تعمل من الجانب الآخر على تشكيل هذه الصورة ودعمها و استمرارها. و من المحبّر أن المرأة عندما تصبح في موقع سلطة تمارس سلطتها على النساء الأخريات، كزوجة الابن مثلاً، بالطريقة الذكورية، فتلومها على تقصيرها في العمل و ترى فيها الصورة السلبية للمرأة: المرأة المحكومة برغبتها الجنسية التي لديها المقدرة على أن تدمر مصلحة الرجال و أن تفرق أفراد العائلة. و قد يكون انضباط المرأة خلف هذه النظرة راجعاً، إلى حد ما، إلى ما تجده من منافع ضمن النظام الأبوي للسلطة، أو خوفها من السلطة الفعلية للرجل، أو ارتداعها من قانون الدولة الذي يحد من حريتها في معظم البلدان العربية. (٥)

و يمكن القول إن العوامل مؤثرة تفاعلت في تكوين النظام الأبوي و استمراره، و ذلك في نظرة المرأة إلى نفسها، حيث تعتبر أن دورها في الحياة هو أن تكون زوجة و أماً بشكل رئيسي.

١- حنا مينه: المصابيح الزرق دار الآداب- بيروت ١٩٧٩ ط٣ ص ٥١

٢- = = : الباطر دار الآداب بيروت ١٩٧٥ ص ٢٤٢ -٢٤٣

٣- حيدر حيدر: وليمة لأعشاب البحر دار ورد- دمشق الطبعة السادسة ص ٤٢ ١٩٩٨

٤- قاسم أمين: تحرير المرأة دار المعارف بمصر ص ٤٨

٥- مجلة المستقبل العربي- بيروت العدد ٢٠٠ ١٩٩٥/١٠ ص ١١١ ثريا التركي و هدى زريق مصدر سابق

وتشير بعض الدراسات (١) إلى أن المرأة- خصوصاً عندما يجري عزلها في الحجاب- لا تكون تحت المراقبة المباشرة للرجل، و إنما في الغالب تحت مراقبة غيرها من النساء، و لهذا يلح على الذهن السؤال التالي: لماذا تعيد المرأة في عملية التنشئة، إنتاج الظروف نفسها التي أدت إلى قهرها، على الرغم أن عملية التنشئة الاجتماعية للإناث تقوم بها المرأة في مجتمع يفصل بين الجنسين؟ و الواقع إنه خلال هذه العملية تكونّ الفتاة صورة عن نفسها منقولة إليها من أمها المتكيفة إلى حد كبير مع التصور الأبوي لدور المرأة، و من ثم تنعكس صورة الرجل عن المرأة لتكون صورة المرأة عن نفسها. و إذ تتم هذه العملية بين الأم المتكيفة و ابنتها الصغيرة، فإن ذلك يعطيها الكثير من المصداقية و الفاعلية، و تقوم مؤسسات التعليم الحديثة و المؤسسات الإعلامية و التمييزات التشريعية بتكريس هذه النظرة الدونية عن المرأة و هو يساعد على تعميق بنيتها من قبل المرأة ذاتها.

إن حب الوطن يصور العلاقات بين الآباء و الأبناء، و ليس الوطن أرض الأجداد و أرض الآباء فحسب، بل هو أيضاً كيان طبيعية القربى، فالوطن (أمنا) و رئيس الدولة (أبونا). هكذا نرى جميع العقائد السياسية و جميع الاعتقادات المتصلة بالسلطة ما تزال تحمل آثار الانتماء إلى الأب.

يقول د. هشام شرابي: لا أبالغ في قولي أنه من المفجع أن يولد الإنسان أنثى في مجتمعنا. أنني لا أعرف مجتمعاً في العالم- حتى المجتمعات البدائية- وضع الأنثى فيه مثل وضعها في المجتمع العربي. و مهما حاولنا إخفاء هذا الواقع أو تبريره فالحقيقة بارزة أمامنا و هي تصفعنا كل يوم.

مستحيل أن يتغير المجتمع العربي ما دامت المرأة العربية في وضعها الراهن، و ذلك لأنها هي التي تصنع الإنسان العربي. و طالما أن المرأة العربية لم تتغير بعد فالإنسان العربي غير قابل للتغيير. و عندما قال نابليون أن اليد التي تهز السرير هي اليد التي تهز العالم، قصد بذلك أن المرأة لا الرجل هي قاعدة المجتمع و ركيزته.

و يضيف شرابي: إننا لا نعرف حقيقة وضع المرأة في مجتمعنا. و نحن بشكل لا شعوري، نرفض مجابهة هذه الحقيقة و نتناساها، و بالتالي نسدل الستار على أهم مشكلاتنا الاجتماعية و أكثرها تعقيداً. لكننا إذا كنا جادين في مجابهة التحدي الحضاري و في بناء مجتمع جديد في هذا الوطن علينا قبل كل شيء أن نعيد إلى نصف هذا المجتمع إنسانيته الكاملة. (٢)

1- Christine Eickelman Women and Community in Oman New York Univesity Press 1984 P 81

٢- د. هشام شرابي مقدمات لدراسة المجتمع العربي الدار المتحدة للنشر- بيروت ١٩٧٥ ط٢ ص ١١٢

شخصيات بارانوية

ينتاب الإنسان شعور بالعظمة حين ينجز إنجازاً فائقاً، دونه ما عمله غيره، و هذا شيء لا غبار عليه. و لكن جنون العظمة من أعراضه أن المريض به يشعر بأنه شخص عظيم أو زعيم أو قائد، و يسمى هذا المرض طبياً (بارانويا). البعض يرى في البارانويا شعوراً جارفاً في (الأنا) الفوقية، و البعض يراها في (الأنا) الدكتاتورية، مهما تكن النتائج. و بين هذا و ذاك نرى شخصية مرضية قد تبقى بين ظهراني مجتمعها أو أن توضع في المصحات العقلية.

و سنضع بعض النماذج لشخصيات بارانويه في الصورة حتى نرى كيف تصرفت في حياتها بالشكل المرضي.

المتنبي

يعتبر المتنبي أحد شعراء العرب الكبار، و هو المعروف بذكائه، و لكنه كان من المصابين بالبارانويا..

فقد كان أقوى من نفس أي شاعر عرفناه.. نفس قائد، أو ثائر، أو ملك، أو فيلسوف يبشر بفلسفة القوة و العنف.. شاعر يصف النفس البشرية و يعربها و يصمها بالنذالة و الجبن و الخداع.

و حين يصف المتنبي نفسه في شعره، فهي منفوخة بشعور العظمة، و إليك بعض شعره:

أي عظيم أتـــقي — أي مـكان أرتـــقي

و كل ما خلق الله — و مـا لـــم يـخـلق

محتقر في همتـي — كشعرة في مفرقي

إلى أن يقول:

أنام ملء جفـوني عن شواردها — و يسهر الخـــلق جراهـــا و يختـــصم

فالخيل و الليل و البيداء تعرفني — و السيف و الرمح و القرطاس و القلم

و يحفل شعره بكثير من تعظيم الذات، فهو معجب بنفسه، بشعره، و فنه، معجب بشجاعته و إبائه و كبريائه، يعتقد بأن بين جنبيه نفسية سيد و أمير، و ليس نفسية شاعر مستجد. كان داعية فردياً لنفسه و أراد أن يوهم الناس بأهميته الخاصة، فيكسبهم إلى جانبه ظناً منهم أنه يمثل حركة ما سرعان ما تظهر و تنتشر و تسود، فيفيد من يفيد منها، و لكن- أيضاً- فإن التاريخ لم يحدثنا بأن المتنبي قد تمكن من جمع الناس حو له، إضافة إلى أن موقفه النفسي من الجماهير هو موقف المحتقر، المزدري، المتعالي.

لقد بنى المتنبي ملكاً و نصب من نفسه ملكاً، لكن مملكته الوهمية هذه لا تعتمد على العقل، و إنما تم إنشاؤها من خيال، و تعتمد على القوة و العنف و الشدة و الموت في سبيل إحراز الكرامة المهدورة و إرجاع احترام النفس الذي لم يتمكن المتنبي من اكتسابه في الواقع، فما كان منه إلا أن لجأ إلى الخيال، و في تصوره أن الجاه و السلطان مبذولات لأناس أغنياء جبناء، بيد أنه يرى في نفسه الأبية العاقلية الذكية محرومة منهما. (١)

و تبدو حالة المتنبي المرضية حين يكون وحيداً، فالعزلة ركن مهم في الوهم المرضي، والخيال الخرافي الذي يصور لصاحبه ما لا يمكن أن يكون و كأنه قد وقع فعلاً. ففي وحدته يقنعه الخيال الواسع و يوهمه بأنه قائد كبير يقود جيشاً من الغاضبين الناقمين الذين هم أقرب إلى كبار الثوار. كما أن لدى المتنبي اليقين في أن الناس لا يصدقون ما يصف به نفسه، و ما يبشر به عن عظمته، و يدرك أنهم يضحكون من الخلف لأنهم يدركون واقعه الحقيقي، و لكنه لم يجد أحداً يحدثه بهذا الوهم الذي يعتريه، فنجده إزاء ذلك الإحساس يتجه نحو الحيوان. و رغم ما يبديه المتنبي من براعة في التخطيط لثورة ضخمة يقود بها الأنس و الحيوان تحت أمرته، إلا أنه ينقصه خلق القائد، فهو لا يحترم أحداً، و يرى نفسه النموذج الأعلى للإنسان.

و هنا نرى أن المتنبي كان محباً للسلطة و النفوذ و هو يشبه الغرور، و يعتبر العنصر الأقوى في الطبيعة البشرية العادية، و هو في الحدود الطبيعية لا غبار عليه، و لكن حب السلطة يغدو بغيضاً حينما يتضخم أو تصاحبه غفلة من الواقع.. فعندئذ يصاب الشخص بالشقاء أو الخبال أو بالأمرين معاً.

١- صحيفة الشرق الأوسط لندن ٢٠٠١/٤/٣٠ ص١٠ د. نجم عبد الكريم

لقد كان المتنبي مصاباً بنوع من جنون العظمة و الشعور بالاضطهاد. و هذا النوع من الجنون يتعرض له الإنسان في كل سن، و يرجع في الغالب إلى الكبت الذي يأتي من الصراع العقلي، بين الرغبة الفردية للإشباع و خوفه من الفشل لوجود العقبات التي تحول بينه و بين تلك الرغبات.

عبد الرحمن بدوي

الدكتور عبد الرحمن بدوي شخصية فكرية و فلسفية مرموقة في العالم العربي، فجر من خلال كتاب له كل ما أدخره من بارانويا عن نفسه من خلال مهاجمته أو حطه لمعظم الأدباء والساسة المصريين الذين كان لهم دور هام و بارز في صياغة العقل و القلب و الضمير المصري و العربي في القرن العشرين، و هم ممن عاصر معظمهم حتى يضع نفسه (فوق) الكل، و أنه هو عظيم عصره.

ولد د. عبد الرحمن بدوي في ١٩١٧/١/٤ في قرية من محافظة دمياط من أعمال مصر، حصل على الليسانس في الآداب عام ١٩٣٨ و في نفس العام عين معيداً في كلية الآداب بجامعة القاهرة. و في عام ١٩٤٤ نال من باريس درجة الدكتوراه عن رسالته (الزمان الوجودي) و عمل بالتدريس في جامعة القاهرة ثم في جامعة عين شمس فمستشاراً ثقافياً لمصر في سويسرا من ١٩٥٦ إلى ١٩٥٨ كما عمل في ليبيا. و في عام ١٩٧٣ سافر إلى باريس و بقي هناك فارضاً على نفسه اغتراباً قسرياً دون أن يجبره أحد على ذلك.

و في هذه الأثناء ألف العشرات من الكتب، كما ترجم الكثير، و فاقت المؤلفات بين الترجمة و التأليف التي وضعها د. بدوي عن المئة، و تأثرت بها أجيال كاملة، و لا يمكن إنكار أثره على الفكر العربي، و خاصة الفلسفي، فهو علم كبير في هذا الشأن.

بيد أن مذكراته التي كتبها (١) فجرت أزمة لدى القراء العرب في هذا التعالي عن معظم الناس الكبار الذين كتب عنهم و لم يبق أحد تقريباً إلا و حط من شأنه، و إعلاء شأنه هو- د. بدوي- بحيث أعطى ظاهرة أخرى لأبطال جنون العظمة و هو ما جعلنا ندرج سيرته.

فهو يتهم الشيخ محمد عبده بأنه كان صديق اللورد كرومر، و أنه كان مصلحاً دينياً مزعوماً. و هو ضليل الإنتاج الفكري، إذ ليس له إلا كتاب صغير هو رسالة التوحيد، و هي درس

١- د. عبد الرحمن بدوي: سيرة حياتي جزآن المؤسسة العربية للدراسات و النشر- بيروت- عمان ٢٠٠٠

ألقاه في بيروت بعد خروجه من مصر، و هي متن في علم التوحيد واضح العبارة حسن الأسلوب، لكنه من حيث المادة خجل بسيط لا يفيد إلا المبتدئين في هذا العلم. و ما عدا هذه الرسالة ليس إلا تعليقات لغوية بسيطة على مقامات بديع الزمان الهمذاني و البصائر النصيرية للساوى، و نهج البلاغة المنسوب إلى الإمام علي بن أبي طالب.

و يتناسى د. بدوي ما قدمه له طه حسين من مساعدة حين أرسله إلى باريس لدراسة الدكتوراه، فيتهمه انه كان مخبراً عند (البوليس) إلى أن يقول عن كتابه (حديث الأربعاء) إنه لا يؤلف وحدة متصلة بل هو في الغالب انطباعات متناثرة و لمحات قصيرة.

أما أحمد أمين فيصفه بدوي بأنه رجل حقود ضيق الأفق تأكل الغيرة قلبه من كل متفوق و من كل متقن للغات الأجنبية، لأنه كان لا يعرف أياً منها إلا قشوراً تافهة من أوليات اللغة الإنجليزية و كان يسعى للتعويض عن عجزه بانتحال أعمال الآخرين، خصوصاً الناشئة المتطلعين إلى الشهرة بالتسلق على جنوع شخصيات مهمة.

و يصل إلى عباس محمود العقاد فيقول عن كتابه (تذكار حبيبتي) إنه كتاب صغير و تافه، و أنه لا يحب القراءة للعقاد، و إن هذا كان طوال حياته مأجوراً لحزب من الأحزاب السياسية. و كتب في مهاجمة العقاد فرد هذا بأعنف و لما استشير د. بدوي رأى أن العلاج لا يكون بهذه الطريقة، بل لا بد من استخدام العنف معه، لأنه لا يردعه غير العنف. و هكذا أخذ برأيه هذا عضوين من أعضاء الحزب الذي كان منتمي إليه د. بدوي و قبعا منتظرين العقاد جانب بيته. و ما أن عاد العقاد حتى انهالوا عليه بالضرب و الصفع و الركل و أفهماه أن هذا تأديب مبدني بسبب كتابته مقالتين ضد الحزب المنتمي إليه بدوي.

و مع أن بدوي كان من حزب مصر الفتاة فلم ينج مؤسسه أحمد حسين من سهامه، فهو يصفه بأنه ضيق التفكير و مندفع بصورة انفعالية، و أنه فطر على العناد و الاستبداد بالرأي.

و عن الدكتور عبد الوهاب عزام أمين عام الجامعة العربية فهو مدعي للعروبة و الإسلام، حقود متقلب الأهواء، تافه جهول، رجل يعاني من التفاهة، يمارس الدجل على الناس.

أما الدكتور علي ابراهيم فهو جبان هياباً للسلطة أياً كانت، و ليس له من مبدأ في السياسة، انتهازي يأكل على كل مائدة من موائد مختلف الأحزاب السياسية.

و عن د. زكي نجيب محمود فهو يكتب مقالات أدبية سطحية، معظمها تلخيص ساذج لكتاب وول ديورانت (قصة الفلسفة) و هو كما يدل عليه اسمه كتاب تافه جداً و سطحي جداً.

أما محمود فوزي أحد أبرز وزراء خارجية مصر فيصفه بأنه رجل معتوه و جهول لا يدري في السياسة شيئاً.

هكذا سار د. بدوي في كتابه يطعن هذا و يشتم ذاك لرموز كبيرة في ميدانها مادحاً نفسه.

إن الربط بين الدكتاتورية و جنون العظمة نراه في حالة د. بدوي حين ضرب العقاد كما هي شريعة الغاب لمخالفته في الرأي، و يتفاخر بعد سنوات طوال بذكر هذه الحادثة، سواء صحت أم لا، فهي تبعث على الشفقة لفيلسوف عظيم يتفاخر بمثل هذه الحادثة.

و لكن من يتفحص الأسماء التي ذكرها عبد الرحمن بدوي وكال لها هذه الأوصاف ممن تعامل معها أو نافسته أو كانت أعلى منه شأناً يستغرب مثل هذه التفوهات.

يقول عن نفسه في مذكراته ما يجعل المرء يقف دهشاً كيف لا زالت مثل هذه الحالات موجودة في مثل هذه الأيام: هيهات.. هيهات أن يوثر طنين الذباب في جبل شامخ.. و هو المعني بالجبل الشامخ.

و يصف من ينتقد بهذا البيت من الشعر :

كناطح صخرة يوماً ليوهنها فلم يضرها و أوهى قرنه الوعل

و يكتب عن نفسه بعد أن حقق و ترجم كتابه (الشعر و الخطابة لأرسطو):

و هكذا أنجزت هذا العمل الجبار متحدياً كل الباحثين القدماء و المعاصرين، و هذا ما أثار حقد العاجزين الأدعياء.. و يكمل ما قدمه: و بهذا العمل العظيم الذي لا أجد له مثيلاً في تاريخ تحقيق المخطوطات في العالم كله و بأية لغة من اللغات.

و من يتمعن فيما كتبه د. بدوي يرى جنون العظمة في كل صفحة من صفحات هذه المذكرات.

إن عقدة الأنا لديه تتمركز حول الذات و عبادة الذات من خلال حالة من هستيريا جنون العظمة (١). و هنا نرى أن اضطرابات الشخصية بأشكالها المختلفة عادة ما تصحبها طرق غامضة متناقضة من التفكير عن الذات و عن البيئة، و يبدو المريض بها قلق و متوتر يفسر المواقف باتجاه واحد دون استخدام تفسيرات أخرى تنتشله من أسر الاستجابات العصابية.

١- مجلة وجهات نظر- القاهرة آذار ٢٠٠٠ ص ٥٢ يوسف القعيد

سلفادور دالي

في عام ١٩٨٩ بارح الحياة سلفادور دالي المولود عام ١٩٠٤ بعد أن ملأ الدنيا بعبقريته و جنون عظمته، بحيث إن العالم كان يتندر بتصريحاته و أعماله، و لولا أنه ماركيز و رسام عبقري لحسب المرء تصريحاته صادرة من أحد نزلاء مستشفى الأمراض العقلية.

يقول في مذكراته التي كتبها بعنوان (مذكرات عبقري)- و يعني بالعبقري هنا هو نفسه- قائلاً:

إن عبقريتي ليست و لا يمكن أن تكون موضع جدل، ففي ملامحي سيماء عبقرية لا يمكن أن يخطئها الناظرون..!

و بالفعل فإن مظاهر العبقرية التي يشير إليها دالي تتجلى في كل شيء يخصه أو يحيط به، بدءاً من مظهره غير المألوف و شواربه المرتفعة إلى أعلى التي يقف عليها طائر مثل قرن الخريبت،و مروراً بأثاث أماكن إقامته المختلفة و حتى أعماله الفنية التي بلغ عددها حوالي ٩٠٠ عمل، تنوعت بين اللوحات و التماثيل و أعمال الحفر و مختلف التصميمات للحلى و الأثاث والملابس.

و لد دالي في مدينة صغيرة تقع شمال أسبانيا، و كان طفلاً مشاكساً لا يطيقه أحد، و في نفس الوقت موهوباً في كل شيء حيث أتم رسم لوحتين بالزيت و هو في العاشرة من عمره. و من ثم أرسله والده و هو في السابعة عشرة لدراسة الفنون الجميلة في مدريد، و لكنه في عام ١٩٢٤ فصل من الأكاديمية لمدة عام بسبب نشاطه السياسي و حثه الطلبة على الإضراب، ثم فصل نهائياً بعد ذلك بعامين لأنه رفض أن يدخل امتحان تاريخ الفن بحجة أن معلوماته تفوق معلومات ممتحنيه، و هذا كان الامتحان الأول لجنون عظمته أمام الملأ، مع أنه أثبت موهبته كعبقري.

و كان لاكتشافه في مؤلفات سيجموند فرويد المتداعيات الجنسية للعقل الباطن أن حلق به بعيداً حين سافر إلى باريس حيث غرق في دوامة الفن السريالي حتى تفوق على أقطابه و أصبح زعيماً لهذا الفن الذي يعني ما وراء الواقع من رؤى و أحلام يتجاوز بها الفنان معقولية الأشكال، وتعتبر التحقيق الفني لنظرية فرويد، عالم النفس الشهير و التي تقول إن العقل الباطن أثناء

النوم أو اللاوعي ينطلق بلا حدود متحرراً من سيطرة الشعور. (١)

و تجسدت عبقرية دالي في أنه تمكن من تجسيد هذه الرؤى و الشطحات التي يراها الإنسان في أحلامه بتمكن و روعة شديدة، و أصبحت لوحاته بمثابة نافذة على عالم الإنسان الباطن. و لكي يستدعي دالي صوراً من عقله الباطن بدأ في ابتكار حالة يضع فيها نفسه و هي حالة تشبه حالة الهذيان و أطلق عليها اسم (البارانويا النقدية) و كان يكتب قائمة بالأشياء التي بدأ يتخيلها و التي كانت في الغالب أشياء غريبة مثل الدماء و فضلات الإنسان. و المستغرب أن أعماله هذه تميزت بالواقعية و العبقرية الشديدة في آن واحد، و كانت قمة (البارانويا النقدية)، فظهرت له لوحات (الرغبات المضيئة) عام ١٩٢٩ و (إصرار الذاكرة) عام ١٩٣١ و (مريض جنون العظمة) عام ١٩٣٥ و (اللغز اللاشهاني) عام ١٩٣٨.

و أخذت شهرة دالي تتسع في ميدان الرسم و النحت حتى عد آخر عباقرة الفن في القرن العشرين.

أحب زوجته جالا حباً كبيراً، و منذ تزوجها و من فرط حبه لها و تعلقه بها كان يدخل إلى الكنيسة مع أصدقائه لإعادة تمثيل حفل زفافه، و هو تصرف طريف و شاذ من ضمن تصرفاته و خروجه عن المألوف. و كان يهوى ارتداء الملابس الغريبة و كأنه ذاهب إلى كرنفال. و وصل عام ١٩٥٨ إلى نيويورك و هو يحمل لوحة طولها متر لأنن بشرية، و قال إنه رسم هذه اللوحة لأنه مقتنع أن كل شيء يبدأ من الأنن. و في عام ١٩٦١ وصل إلي قمة اللا مألوف في تصرفاته حين ربط فرش الرسم في ذيل خنزيرين، و وضع موتورا في حوض كبير ملأه بمزيج من الكريم و شراب الشوكولاته و السمك و الدود، ثم كلف فتاة جميلة بإدارة المزيج و أخذ الخنزيران يغمسان الفرش في المزيج ثم خرجت اللوحة.

كان سلفادور دالي عبقرياً بكل بمعنى الكلمة و لكنه كان في قمة البارانويا من خلال تصرفاته الغريبة. و قد جسد جنون العظمة بقدر ما استطاع إليه سبيلاً ، و كأنه كان يوغل في اللامعقول كلما تقبل الناس لا واقعيته، مثلما يفعل الطفل من أفعال غير عادية فيضحك من حوله. ولكن دالي من خلال بارانويته أوجد مصطلحاً جديداً في علم النفس و هو (البارانويا النقدية).

١- صحيفة الأهرام- القاهرة ١٩٩٨/١/٢٢ خادة الشرقاوي

ابن خلدون، الشخصية الفكرية العربية المعروفة بين أقاصي الأقطار العربية، و حتى على الصعيد العالمي، هل يمكن وضعه في خانة (البارانويين) الذين ينتابهم الشعور بالعظمة.

إن سيرة حياته تضعه بين هؤلاء، ليس لكونه داعية لأعماله الفكرية، بل لسعيه الدؤوب للوصول إلى المراكز الرفيعة أينما كان و كيفما كان، سواء في الأندلس أو الجزائر أو المغرب أو القاهرة، أو غيرها من الأماكن.

كان لديه الشعور بعظمته، و لأن الزمن الذي وجد فيه، لم يكن ليهضم (مقدمته)، فإنه اعتمد على أصوله و علمه في السعي إلى السلطان، مهما كانت السفينة التي ستنقله.

ولد ابن خلدون سنة ١٣٣٢ م لعائلة مرموقة و نبيلة، من أسرة كندية حضرمية قدمت من الجزيرة العربية، فأقامت في الأندلس، و كانت عائلة خلدون إحدى أقوى عائلات ثلاث في إشبيليا و لها دورها العظيم. و قد عدّد الكثيرون من المؤرخين الشهرة التي كان يتمتع بها آل خلدون في الحقل العلمي أو الفكري و السياسي. و قد اشتهر آل خلدون في البسالة التي أبادوها خلال معركة زلاقة الشهيرة (١٠٨٦) حيث سحقت جيوش المرابطين و الأندلسيين الجيوش المسيحية.

و نزحت عائلة خلدون على تونس حيث كانت تربطها صداقة و علاقات عائلية بالحاكم. وعقب وفاة أول ملك حفصي، احتفظ آل خلدون بعطف و ثقة خلفائه. فوالد ابن خلدون كان وزيراً للمالية، و قد دفع حياته ثمناً لتعلقه بالسلالة المالكية، عندما استولى على الحكم مغتصب لفترة ما. وجد عبد الرحمن بن خلدون المؤرخ، و قد تقلد عدة مناصب، و أظهر أمانة نادرة نحو ملكه، لحظة ابتأس. و قد كافأه الملك بأن جعله مستشاره و أوكل إليه حكم العاصمة أثناء غيابه. (١)

إن نزعة حب المناصب و التقرب لذوي السلطان كانت مستشرية بين آل خلدون. و معلوم ما تستلزم هذه النزعات من أصناف المصانعات، و لا سيما في الدول الأوتوقراطية التي كانت سائدة في تلك الحقبة. و قد كان ابن خلدون لا يتجاوز العشرين ربيعاً حينما وضع في المنصب الذي ذكرناه، و لكن وظيفة كهذه لم تكن تتفق مع مطامعه الواسعة فولى وجهه شطر المغرب عام ١٣٥٢م. وهناك لم يستقر في بلدة: فمن بسكرة بالجزائر إلى بوجاية، و من هذه إلى فاس. فإذا به بعد عام يقضيه في

١- ايف لا كوست العلامة ابن خلدون ترجمة د. ميشال سليمان دار ابن خلدون – بيروت ١٩٧٨ ط ٢ ص ٤٥

رحاب ابن عنان سلطان بني مرين بمراكش يصبح مستشاره الخاص، ثم لم يمض على ذلك إلا مدة قليلة حتى تغير عليه السلطان و ألقاه في غياهب السجن. و ظل فيه سنتين حتى إذا توفي السلطان أخرجه خلفه من السجن، بشفاعة وزيره الحسن بن عمر، و أعاده إلى وضعه السابق.

و كان لذكاء و دهاء ابن خلدون السياسي و العلاقات العديدة التي أقامها في البلاط لها صداها، حتى أن أبا سالم كافأ ابن خلدون على موقفه و اتخذه مستشاراً و كاتباً له. و نلمس مدى عظمة الذات عند ابن خلدون حين يقول في مقدمته عن تلك الفترة ((لقد عزمت على التمتع بمظاهر النجلة التي كان يطيب له (الوزير) أن يمنحني إياها)). (١)

و لم يلبث وزير (ابن سالم) عمر بن عبد الله أن تآمر عليه مع بعض زعماء بني مرين و خلعه عن العرش. و يقال إن لابن خلدون إصبع في هذه المؤامرة لأنه لم يقنع بعد الانقلاب بمنصب الإنشاء الذي أقره فيه الوزير، بل أخذ يطمع برئاسة الوزارة، و يبدي شيئاً من الجفاء للسلطان الجديد مما اخسر ابن خلدون ثقة الحاكم، و حمله على الهجرة يائساً من المغرب إلى غرناطة (١٣٦٢م) عاصمة بني الأحمر. و يصف ابن خلدون في مقدمته كيف كان استقبال السلطان له بكل مودة و إطراء و بتعظيم كبير. و يعود ذلك إلى أن محمد الخامس ملك غرناطة، و وزيره ابن الخطيب، كانا قد طردا من عاصمتها إثر انقلاب. و قد لجأ إلى فاس، حيث حظيا من كبير الوزراء المراكشي على مساعدة هامة لاستعادة ملكهما. و بفضل ابن خلدون، توصلا إلى تسلم مدينة رنده، آخر معقل للمرينيين في الأندلس. و قد سمحت لهما هذه المساعدة بطرد المغتصب و استعادة غرناطة. و في هذه الأثناء حرص ابن خلدون على عائلة الأندلسي. و هكذا كانت عودة العرش إلى هذه الملك، منذ بضعة أشهر فقط، مدينة إلى حد كبير، لفطنة ابن خلدون.

و لكن لم يكتب لابن خلدون الاستقرار في الأندلس أيضاً لأن خلافاً شديداً وقع بينه و بين الوزير لسان الدين بن الخطيب كان حافزاً له على أن يكاتب أبا عبد الله الحفصي سلطان بجاية في الجزائر، و لأن يشد الرحال إليه (١٣٦٥)، و قد تقلد هناك منصب الحاجب بالإضافة إلى الأمانة و التدريس في المسجد الكبير. و لكن الحظ لم يسعف ابن خلدون في هذه المرة أيضاً، ذلك لأن صاحب قسطنطينية لم يلبث أن تغلب على ابن عمه سلطان بجاية في العام التالي، و أنه تنكر لابن خلدون مما اضطره لمغادرة بجاية إلى بسكرة فتلمسان التي كانت لآل عبد الواد. و قد كان من

١- عبد الرحمن ابن خلدون: مقدمة ابن خلدون دار احياء التراث العربي- بيروت الطبعة الثالثة من المقدمة الاستهلالية

المفروض أن يستقر بتلمسان لأنه أدرك فيها هدفه المنشود بتوليه منصب رئاسة الوزارة (١٣٦٨) و لكنه لم يستطع الحفاظ على ثقة الحاكم فاضطر لاستئذانه بالانصراف و عاد إلى غرناطة. و أثناء وجوده في الأندلس اكتسح عبد العزيز سلطان مراكش تلمسان فدعا ابن خلدون و عهد إليه ببعض الخدمات، و كأن هذا لم يقنع بها فغادر تلمسان إلى فاس فغرناطة (١٣٧٤). و إذ لم يلق فيها الإقبال الذي كان يتوخاه عاد إلى تلمسان ثانية.

و كان ابن خلدون في ذهابه و إيابه كريشة في مهب الريح لا تستقر في مكان. و كأن هذه الصدمات المتوالية التي واجهها ألقت اليأس في نفسه فلجأ إلى بليده، هناك كانت تعرف بقلعة ابن سلامة على الشاطئ الأيسر من المرفأ المسمى الآن طوكزوت حيث اعتكف أربعة أعوام (١٣٧٥-١٣٧٨) منكباً على التأليف دون أن يبحث عن أي دور سياسي أو عسكري بعد أن أصيب بمرض خطير، كما أن وفاة أخيه و هو كبير الوزراء في تلمسان حيث اغتيل بدناءة، جعله يتقزز من الحياة السياسية. و أخرج خلال ذلك مقدمته النفيسة التي هي مصدر شهرته، و هي الكتاب الأول من تاريخه، و أهداها إلى أمير المؤمنين أبي فارس عبد العزيز من ملوك بني مرين البربر أصحاب فاس مع كثير من الإطراء بغية إدراك رضاه.

و كأنه لم يدرك من السلطان ما أراد، و كأن الحنين إلى وطنه تونس بالإضافة إلى الأماني التي كانت لا تزال تدغدغ نفسه أثار فيه شهوة العودة إلى مسقط رأسه، فعاد إلى تونس سنة (١٣٧٨) بحجة أنه يريد الاستعانة بالمؤلفات التي يحتاج إليها لاستكمال وضع تاريخه. و استهل عمله فيها بتقديم نسخة من مقدمته إلى خزانة كتب سلطانها أبي العباس الحفصي، و هو أيضاً من البربر، فقدر له مجهوده و قربه إليه و شجعه على إكمال تاريخه. و لكن ابن خلدون لم يلبث أن قوبل في بلده بنقمة عارمة من قبل العلماء، و على رأسهم المفتي ابن عرفة. و ربما كانت ثورتهم عليه ترجع إلى ما ورد في مقدمته من شبهات تتعلق بالعرب؟ (١)

أثرت هذه الأحداث على نفسية ابن خلدون خاصة أن رعاية السلطان له لم تعد مجدية، فحصل على السماح بالتوجه إلى القاهرة لمتابعة أبحاثه، خاصة أن مصر كانت محط أنظاره و موضع إعجابه منذ كان في المغرب، و طالما تحدث عنها في مقدمته و نوه بعاصمتها. و هناك لم يعد يمارس

١- محمد جميل بيهم. العروبة و الشعوبيات الحديثة. مطابع دار الكشاف- بيروت ص ٦٨

سوى مهمات الأستاذ و القاضي حيث التجأ إلى الأزهر، و الأزهر كان و لا يزال ملجأ لعلماء الإسلام، و هو بمثابة منبر عام لإظهار المواهب، فإذا بابن خلدون تبرزه مواهبه فيتدرج صاعداً في القاهرة من أستاذ في إحدى المدارس إلى منصب قاضي قضاة الملكية. و هذا ما أثار عداوة علماء القاهرة، فناهضوا عليه نقداً و شتماً حتى اضطره للاعتزال. و ربما كانت مقدمته في عداد ما أثار عليه أقرانه في مصر كما حدث له في تونس.

و كان في دمشق حين غزاها تيمورلنك و شاهد بأم عينيه سبي النساء و التنكيل الذي لحق بالشعب، إلا أنه عاد في أخريات حياته إلى القاهرة فعين في منصب القضاء، و لكنه لم يتمتع في هذا المنصب بالاستقرار، و استمر ينصب تارة و يعزل أخرى إلى أن توفي عام ١٤٠٦.

إن الذي درسه ابن خلدون، ليس فقط تتابع الأحداث التي طرأت منذ عدة قرون، بل هو أيضاً استمرار هذا التتابع في وقائع كان هو الشاهد عليها. أو القائم بها أيضاً. و في عصر كان فيه إدراك العام بوجه عام، مهمة منظور تاريخي أدنى مما هو اليوم.

لقد عاصر ابن خلدون إلى حد ما فرواسار و بترارك و بوكاشيو و دوغسكلان و باجازت وتيمورلنك. و هذه الأسماء إلى جانب سواها، تستدعي لوحدها عالماً في غمرة التيقظ الثقافي لدى بعض أجزائه.

إن ابن خلدون نشأ ضمن عائلة كان حب المناصب لها غريزة فيها، فأخذ ذلك الأمر لنفسه واضعاً شخصه في عالم غامض و عنيف مكتظ بالحركة و مطبوع بتحولات بطيئة، أو محدد بانقلابات عنيفة، حتى أنه سلك في مقدمته، عند الكلام على العرب، طريق ذلك الإبهام الذي لا يستطيع القارئ أن يميز به فيما إذا كان المؤلف يوجه المثالب للعرب أم إلى الأعراب، و لا زال هذا اللغط شائعاً إلى الآن. و قد يكون ابن خلدون عمد إلى ذلك، و هو العالم لأنه كان يريد المناصب العليا أينما حل، شاعراً بعظمته مؤملاً أن يقدره الحكام العرب في البلدان التي استوطنها. و هذا الشعور بخيبة الأمل أفرغه في مقدمته، حيث يصف نفسه في وقائعها بتعظيم كبير، كما هو شأن الملوك و الرؤساء. و مع كل ما وصل إليه من مناصب رفيعة فإن نفسه لم تقنعها هذه المسؤوليات فانبرى إلى تورية تتلخص العرب أم الأعراب، وهو ما أبقى اسمه متداولاً في الجذور التاريخية للعرب.

إن البارانويا عند ابن خلدون أخذت وجهة أخرى غير الحالات التي نقرأ عنها. فهو يشعر أنه من عائلة كبيرة أسندت لرجالها المناصب عبر عشرات السنين، كما أنه إنسان مجتهد و عالم

يريد أن يصل إلى أقصى ما تطمع إليه النفس البشرية من سلطة، و هكذا تنازع بين هذه المشارب، ولكنه في الأخير أبقى أثراً غنياً له أثره في دراسة علم الاجتماع و هو مقدمته.

موسوليني

جاء من خلال تحليلنا لشخصية الدكتاتور أنه يصاب بالبارانويا من جملة ما يصاب به، و قسمنا الشخصيات إلى بابين، باب (شخصيات بارانوية) و باب (الدكتاتورية و سادية التعذيب). ومع أن الشخصية البارانوية ترافق في الغالب الشخصية الدكتاتورية، فإن هناك شخصيات تبدو عليها ملامح البارانوية أكثر من الملامح الدكتاتورية.

من هؤلاء كان لنا بنيتو موسوليني دكتاتور إيطاليا الفاشي، إنه دكتاتور بلا شك، و لكن الملامح البارانوية، غالبة عليه. هذا ما أطلعنا عليه من خلال سيرته الذاتية، و لهذا وضعناه ضمن الشخصيات البارانوية دون الإغفال أنه شخصية دكتاتورية مرة.

كانت ولادة بنيتو موسوليني في الثامن و العشرين من شهر تموز سنة ١٨٨٣ بقرية دوفيا الملحقة ببلدة بريدابيو في ظلال جبال ابنين لأم كانت مدرسة، و أب كان حداداً، و لكن الحداد لم تشغله حرفته عن أن يكتب للصحف الاشتراكية المحلية! و قد سمى ابنه بنيتو تيمناً باسم بنيتو جواريز، الثائر المكسيكي المشهور.

و كان الشظف الذي أحاط بحياة موسوليني في صغره، يفسر الكثير من تصرفاته في كبره.. كانت مدرسة أمه الصغيرة، و حانوت أبيه، ملحقين بغرفتين صغيرتين كانت الأسرة تنام، وتعد طعامها، و تأكله فيهما! ... و كان الأقارب من الفلاحين الثراة يعجزون عن فهم حذلقة المعلمة، و جهود الحداد فيما لا علاقة له بعمله، و لكنهم لم يكونوا يبخلون بدعوة أفراد الأسرة إلى مأدب يظلون يذكرون لذة ما يقدم فيها من طعام شهي، لوقت طويل. (١)

كما كان بنيتو ينفر من النظام إلا أنه كان طموحاً، تواقاً إلى الرقي و الظهور، فكان في العطلات يتأنق في ملبسه- بقدر ما تسمح له ظروفه المحدودة- ليلفت أنظار الفتيات. و كان قبل أن تحمله السياسة على أن يزهو بنشأته المتواضعة، مثالاً لأبناء الطبقة المتوسطة، ولوعاً بأن يبدو في ثياب المدرس المحترم، الميسور الحال.

١- اعتمدنا في السيرة الذاتية لموسوليني على كتاب

Paolo Monelli: The intimate Life of Mussolini London: Pan Book 1952

و حلمه بالمجد و السلطان كان يمتد منذ طفولته، حتى لقد قال لأمه مرة (لسوف أهز العالم بأسره)، فاستمعت إليه في سرور مازجه اليأس و الأسى، و كان يحلو له أن يصف نفسه بأنه (وغد قلق، شرس، محب للعدوان، و لص ريفي جرئ)! و لا يزال رفاقه يذكرون كيف كان يسعى دائماً لأن يكون له نصيب الأسد مما يصيبون من غنائم في غزوات السرقة، و كيف كان يتشاجر معهم إذا لم ينل بغيته!

و التحق بنيتو في سن السادسة عشرة بمدرسة للمعلمين، و كان لا يزال متمرداً على النظام، و قد شغف بمغازلة الحسان، و راح يقضي أمسياته في المراقص الرخيصة، و لكنه مع ذلك كان مجداً، مقبلاً على العلم، حتى أنه كان يعتبر من خيرة طلبة فصله، و كان شغوفاً بالقراءة يلتهم كل ما يقع تحت يده من صحف و كتب.

و منذ صغره و هو هائم بالنساء، حتى أنه تمادى في علاقته بفتاة من صويحباته تدعى فرجينيا، وضعها في مؤلفه عن حياته بأنها كانت كريمة، ذات جمال متوسط، ثم وصف زلته معها بقو له: و في ذات يوم، اصطحبتها إلى غرفتي، فدفعتها إلى ركن خلف الباب، و اعتديت عليها، فنهضت كسيرة النفس، دامعة، و أخذت بين شهقاتها الباكية تسبني، قائلة إنني اعتديت على شرفها، و قد يكون هذا محتملاً كل الاحتمال، و لكن، أي شرف ؟ و لم يدم سخط الفتاة طويلاً، فما لبثت أن صارت خليلته لمدة ثلاثة أشهر، و مع ذلك فقد كانت له في تلك الفترة غراميات أخرى عديدة.

و يبدو أنه كان في كسب ود الفتيات يستغل الحيلة الأبدية المألوفة .. الوعد بالزواج! .. فلقد كتب في كتابه (سيرتي)- الذي سرد فيه تاريخ حياته- إنه حين كمدرس مؤقت في مدرسة ريفية ببلدة جواليتيري، هجر خطيباته بالجملة.

لقد رافقت غراميات موسوليني حياته إلى مماته، و سنتحدث في نهاية هذه السيرة كيف كانت نهايته مع عشيقته لما أعدم.

و هناك وصف مبكر لحالة البارانويا لدى موسوليني مع ما كتبته الكاتبة انجليكا بالابانوف التي التقت به في جنيف سنة ١٩٠٤ بأنه كان متهوساً، شديد الانفعال، زنديقاً.. و مع كراهيته الشديدة لكل نوع من الامتيازات التي تفرق بين الطبقات، إلا أنه كان يأبى أن يعتبر من العمال أو الطبقة الكادحة، بل كان يؤمن بأنه مثقف، و زعيم.. و كان الفارق الكبير بين حاله و أحلامه يوحي إليه بالمغالاة في الرثاء لنفسه، و بالمبالغة في تصوير انعدام العدالة الاجتماعية! و شعرت الكاتبة بأن اشتراكيته، و نزعته الثورية، و عداءه لرجال الدين، و تطرفه، ليست سوى نتائج لبيئته الأولى..

فهي جماع التأثر بأبيه، و الشعور بالنقص، و الرغبة في أن يثأر لنفسه من آلاف العوامل- الشعورية و اللاشعورية- التي كانت تحز في أعماقه، و منها نقمته على جده الذي كان موسراً ثم بدد أراضيه.. و على ناظر مدرسته الذي كان يضحك منه في سخرية قاسية، و على رئيسه- في أحد الأعمال التي مارسها- إذ كان لا يفتأ يتهمه بالكسل، و على مواطنيه الذين كانوا يتأففون حين يبذلون له المساعدات، و على الحراس الذين ألقوا القبض عليه يوماً لأنه كان ينام تحت أحد الجسور.

و في عام ١٩٠٤ عاد إلى وطنه مقصياً عن سويسرا بأمر رسمي، فلم يلبث أن دعي للخدمة العسكرية، و لحق به ملف خدماته، فاعتبر من الفوضويين الحمر- الشيوعيين- بيد أنه لم يلبث أن برهن على استعداده لتقبل النظم العسكرية و الانصياع لها. و عند تسريحه في سنة ١٩٠٦ عاد إلى بريدابيو حيث التقى ثانية بأصدقائه الاشتراكيين، و أقبل على الحركة الاشتراكية متحمساً، حتى لقد قبض عليه مرة، و قضى عليه بالسجن لعشرة أيام، ثم وضع تحت رقابة الشرطة.

و اجتذب موسوليني أنظار الفتيات و النساء بثيابه السوداء، و بانطلاقه في الشوارع عاري الرأس، هاتماً، و في يده كتاب أو صحيفة يلتهم سطورها و كان يتسلى بأنواع من العبث الصبياني: كالتربص في الخرابات لإخافة المارة، و تشويه الأشعار المكتوبة على القبور! و لم يكن ليحجم عن أن يتعرض لأية امرأة مليحة تصادفه.. كما كان يخيف تلاميذه بالدق على المكتب بقبضته، و التحديق فيهم بنظرات فظيعة، و شتمهم بأقذع الشتائم، حتى صاروا يسمونه (الدكتاتور).. و قد وصف الفترة التي قضاها في (بولميتزو) بأنها عام من التداعي و الانهيار الخلقي!. فقد كان خلاله يعيش ثملاً من يوم السبت إلى الاثنين من كل أسبوع، متنقلاً من حانة إلى حانة، معاقراً الخمر أينما حل. و كان يهيم في الطرقات يغني و يصرخ، و لا يفيق غالباً إلى نفسه إلا و هو ملقى في مدخل إحدى الدور.

إلى أن عاد في أواخر سنة ١٩٠٧ إلى أبيه، الذي كان قد أنشأ نزلاً مع أرملة تدعى سنيورا جويدي، و كان للأرملة بنات أخذت تضمهن إلى كنفها واحدة بعد أخرى، فبدأت بأوجستا أولاً، ثم بينا ثم راشيل- التي غدت فيما بعد زوجة لموسوليني- على أنه هام في البداية، في صيف عام ١٩٠٨ ، بحب أختها أوجستا فكان يوزع وقته بين خدمة رواد حانة أبيه، و بين العكوف على القراءة في مكتبة البلدة، و بين التغزل في الفتاة! و لكن أوجستا أعلنت للاشتراكي (نزيل السجون) صدودها، فكانت كلما ألح في مطاردتها، ازدادت تمنعاً و إعراضاً، حتى انتهى بها الأمر إلى أن تزوجت من عامل زراعي اضطر للعمل كحفار للقبور، كي تتخلص منه.

و كان لهذا التصرف من قبل أوجستا أن أغاظته، فتحول إلى أختها الصغرى راشيل التي لم تكن قد تجاوزت السادسة عشر، و لكنها كانت ناضجة الفتنة. و عارض والد بنيتو و أم راشيل في زواجهما، و لكن الشاب عمد إلى حيلة تمثيلية طريفة، إذ صحب الفتاة لمشاهدة إحدى المسرحيات، حتى إذا عادا في نهاية السهرة، أشهر مسدساً في وجوه المعارضين و صاح مهدداً : إذا لم تزوجوني إياها ففي المسدس ست طلقات، واحدة لها و خمساً لي!

و نجحت التمثيلية و انتقل الشابان إلى مسكن منفصل، عاشا فيه (دون رباط رسمي، مدنياً كان أو دينياً) كما اعترف موسوليني في سيرة حياته! و بقي على هذه الحال إلى أواخر سنة ١٩١٥ حين عقد زواجه على راشيل و هي حامل في ثاني أطفالهما.

و صعد موسوليني في ميدان السياسة سريعاً إلى أن دعي سنة ١٩٢٢ إلى تأليف وزارته الأولى التي ضمت عدداً من غير الفاشيين، و لكنه احتفظ لنفسه بسبع وزارات تركزت فيها أهم الشؤون الحيوية. ثم أخذ على مر السنين يقصي ذوي الميول الاستقلالية من وزرائه، ليحيط نفسه بنفر من المتقاعسين الذين يجيدون قول (موافقون).. و هكذا جمع السلطة كلها في يديه. و ما لبث أن أنشأ في سنة ١٩٢٣ (المجلس الفاشي الأعلى) فعين أعضاءه بنفسه، و جعله أعلى هيئة في الدولة. كما جعل القوات الفاشية المسلحة قوات رسمية للأمن فغدت جيشاً خاصاً له. و رويداً رويداً نصب نفسه رئيساً للهيئتين التشريعية و القضائية إلى جانب رئاسته للهيئة التنفيذية. فتمحى الفصل بين السلطات في الدولة. و لم تأت سنة ١٩٢٦ حتى كان قد قضى على معارضيه، و حقق حلمه الأكبر، إذ صار الحاكم الأوحد الحقيقي لإيطاليا، و لم يعد للملك أي نفوذ حقيقي.

و أخذ يولع بارتداء الثياب الرسمية، كالردنجوت و السموكنغ، حتى في أبعد المناسبات عن الصفة الرسمية، و أخذت أخلاقه مأخذ الجفاف، نابي الكلام إلى نهاية حياته. فقد كان لا يخاطب وزراءه و زعماء حزبه إلا كما يخاطب الخدم، و في غير ما تلطف أو أدب! و ازدادت جفوته وتعاظمه بازدياد سلطانه، حتى قل اتصاله بالناس، و تضاءل عدد أصدقائه. و لكنه لم يتسم قط بالقسوة و الطغيان إلا في بعض الأحيان بعد سنة ١٩٤٣، و إنما كان عديم الذوق أكثر منه قاسياً، مؤذياً أكثر منه شريراً، وقحاً أكثر منه خبيثاً، لا سيما مع أولئك الذين يقر في نفسه بأنهم أعداء له! أما مع المقربين فكان لطيفاً، سهل الرضى، و إن أباح لنفسه حق زيارتهم في دورهم في أية ساعة من الليل أو النهار. و أخذ شعوره بالسلطان يزداد و يستفحل حتى غدا يعتقد أنه الدولة، و أن أموالها

أمواله، و أن نفقاته الخاصة يصح أن تعتبر من نفقات الحكومة، و هكذا ظل حتى بعد سقوطه لا يدفع شيئاً من جيبه.

و بدأت تتملك موسوليني الأفكار الاستعمارية، و لا سيما عندما اشتدت الأزمة العالمية فيما بين سنتي ١٩٢٩ و ١٩٣٢، إذ آمن بأن الضائقة و الاضطرابات الاشتراكية كفيلة بأن توهن الدول الديمقراطية فتنهار، و إذ ذاك تصبح مستعمراتها لقمة سائغة بين يديه. حتى إذا كانت سنة ١٩٣٢ـ و كان قد غدا يرى نفسه فوق البشر، بل نصف إلـه- تملكته الرغبة في الاستيلاء على الحبشة. و في تلك الأيام استفحلت دكتاتوريته، حتى كان يترفع عن الاتصال بالبشر خارج نطاق مهامه الرسمية، بل كان يأنف حتى من أن يقترب منه حراسه في رحلاته! فلم يكن يسمح لأحد بأن يقربه اللهم إلا (شيانو) سكرتير الحزب و زوج ابنته و وصيفه الخاص الذي كان يخلع حذاءه عن قدميه حين يأوى إلى فراشه.

و تشاء الأقدار أن يلتقي موسوليني بكلاريتا بيتاشي سنة ١٩٣٦ و كانت في الرابعة والعشرين من العمر، و قد انفصلت عن زوجها، و هي امرأة جميلة رشيقة مجعدة الشعر سوداءه يمتزج في عينيها اللونان الأخضر و الرمادي. و كانت مفتونة بموسوليني من صغرها. فهو رجل أحلامها، محتفظة بصورته تحت وسادتها، و تحرص على أن تشبع عينيها بنظرة إليه في الحفلات العامة والمواكب، و تقرأ كل ما يقع في متناولها عنه، و بعبارة أخرى كان أول حب حقيقي لها، و ما كانت لتضن في سبيله بحياتها، حتى أنها رافقته إلى آخر لحظات حياته و حياتها.

و الذي يدرس حياة موسوليني في فترة ١٩٣٦ـ١٩٤٠ يشعر أنه بازاء شخصيتين : أولهما شخصية ابن الطبقة المتوسطة الذي صقله و آلاته حب شابة ساذجة، مخلصة، يستطيع من أجلها أن يترك أهم زواره مكانة قابعاً في انتظاره، و أن يقطع حبل أهم المؤتمرات ليزجي إليها أحاديث الهوى من خلال الهاتف. أما الشخصية الثانية، فشخصية الدكتاتور الذي تملكته فكرة الغزو و الحرب، فهو أبداً في زي عسكري، لا يفتأ يأمر بتنظيم حفلات العرض العسكري، و يقود طائرته بنفسه، و يجند كل أبناء وطنه، حتى الأطفال منهم.

و اشتدت الأزمات على موسوليني و كانت الحرب العالمية الثانية على شفا النهاية، والنهاية هي إنهاء فاشية موسوليني.. و هكذا ضاعت عليه السبل و عمد إلى الفرار من إيطاليا بصحبة عشيقته كلاريتا و لكنه أوقف في اللحظات الأخيرة و أعدم الاثنان.

و مما يروى عن الساعات الأخيرة من حياة موسوليني و كانا موجودين في أحد البيوت الريفية، أنه بعد الساعة الرابعة عصراً، فتح الباب فجأة، و أقبل شاب طويل في ثياب مدنية، و قد حمل سلاحاً، و خلفه عسكريان.. و جال الشخص المدني بنظرات سريعة في الحجرة، ثم تحول إلى موسوليني قائلاً بلهجة حادة: أسرع، فقد جئت لأحرسكما.

و اشتم موسوليني و كلاريتا في صوته و منظره بأن وراء كلماته معنى آخر، و رفعت كلاريتا رأسها عن الوسادة لتنظر إليه و إلى زميليه، ثم ارتمت ثانية، و ولت وجهها شطر الحائط، فأهاب بها قائلاً: (هيا أسرعا!) و خرجوا. و يقول بعض الذين شاهدوهم إن كلاريتا كانت تحمل معطفها على ذراعها.. و من المؤكد أنها نسيت حقيبتها أو خلفتها وراءها، إذ تحققت من أنها لن تكون في حاجة إليها حيثما كان ذاهبة.

و سارت كلاريتا إلى جانب موسوليني و الدموع تجري على خديها، و كانت تتشبث بذراعه، و هو يترنح في بعض سيره معتمداً بيده على جدار قريب، و همت كلاريتا أن تساعده و لكنه نحاها عنه! و أقبلوا على مفترق للطرق أقيم فيه حوض حجري عكفت النسوة على غسيل الثياب فيه.. و لم تعرف إحداهن شخصية الرجل و لا المرأة، و لكنهن لا حظن اليأس الذي استبد بقسمات وجه الرجل، و الدموع التي كانت تنثال على وجنتي المرأة. و عرج الموكب إلى اليسار، و انحدروا إلى الطريق العامة، فمروا تحت بوابة طويلة كأنها النفق، ألفوا بعدها سيارة سوداء في انتظارهم، و إلى جوارها السائق، و رأت النسوة- اللاتي كن يغسلن الثياب- الموكب يقف، و لمحن مدفعاً رشاشاً مع أحد الرجال، ثم رأين المرأة تطوح ذراعيها في يأس، ثم تحيط عنق رفيقها، بينما دفعهما الباقون إلى داخل السيارة و قفز أحد الرجال المسلحين إلى جانب السائق، بينما وقف الباقون على سلم السيارة التي تحركت ونيداً إلى فسحة من الطريق بعيداً عن الأنظار، و هناك أنزل الحراس أسيريهما.

و جرى إعدامهما سريعاً حيث ظلت جثتاهما في الطريق تحت وابل المطر زهاء ساعتين، ثم حملتا في سيارة نقل كانت قد حُملت ببعض الموتى من الفاشيين من (دونجو). و في الصباح التالي، أفرغت السيارة حمولتها- و كانت سبع عشرة جثة- في حظيرة للسيارات بنابولي، و هي حظيرة كان الفاشيون و النازيون قد قضوا فيها على خمسة عشر من المواطنين عندما كانوا يفرضون الإرهاب! و ما لبثت الجثث أن علقت في السقف و تركت معرضة لنقمة الجماهير، و من هذه الجثث كلاريتا و موسوليني.

تلك ملامح من حياة موسوليني أبرزنا بها الجانب البارانويي من شخصيته حيث قادته إلى أن يصير دكتاتوراً. و قد استطاعت عشيقته كلاريتا أن تتقمص دور التابع حين صارحته بانبهارها بشخصيته و هو ما أشفى من غروره فأصبحت عشيقته، مع الأيام عن حق و حقيقة.

الدكتاتورية و ساديّة التعذيب

إن قصص العدوان في الشخصية الدكتاتورية كثيرة و متنوعة، كما أن سلوك العدوان عند الإنسان سلوك متطور في أسلوبه، متنوع في أدواته، حيث استخدم فيه الحجارة و العصي والسكاكين و الخناجر و المسدسات و البنادق و المدافع، و قديماً الحيوانات المفترسة، و كل يوم يبتدع أساليب و أدوات جديدة لعدوانه.

و سنذكر البعض من أعمال هؤلاء الأشخاص الذين مارسوا التعذيب بحكم موقعهم الدكتاتوري و البعض الآخر من خلال سيرتهم الذاتية.

الثورة الفرنسية و طائفة الدكتاتوريين

بعد أن قامت الثورة الفرنسية خلقت طائفة من الدكتاتوريين الذين كانوا يتلذذون بمشاهد الموت، و يتعطشون إلى سفك الدماء. و على رأس هؤلاء (روبسبيير) جزار الثورة المعروف الذي أمر بقتل عشرات الألوف من الأبرياء. و قد بلغ من تعطشه للدماء، أن استصدر قانوناً يبيح له قتل الناس لمجرد الشبهات ! و بعد صدور هذا القانون بلغ ما حصده من رؤوس مواطنيه في باريس وحدها ١٠٣٧٣ رأساً في مدى ٤٨ يوماً!!

و منهم أيضاً (كاريه) الذي اعترف في أثناء محاكمته، بأنه كان يشعر بلذة فائقة عندما كان يأمر ضحاياه بحفر قبورهم بأيديهم ليدفنهم فيها أحياء!.. و بأنه كان ينفجر ضاحكاً و هو يشاهد تغضن وجوه الموتى الذين أمر بإعدامهم !.

و هناك (فوشيه) سفاك الثورة الذي كان يلهو عند مشاهدته تنفيذ الإعدام في التعساء الذين أمر بإرسالهم إلى حتوفهم، كما كان يهتف فرحاً عند سماعه طلقات الرصاص و هي تمزق صدور الذين قضى عليهم بالموت!.

و بلغ من نشوة الكاهن (لوبون)- و كان من أقطاب الثورة أيضاً- بمشاهدة التعذيب، أن أمر بنصب المقصلة تحت نافذة بيته، ليتسلى هو و زوجته بمشاهدة هذه الأداة الرهيبة و هي تقصف رؤوس مواطنيه.

الإمبراطور أوغسطس

روي عن الإمبراطور (أوغسطس) أنه كان شغوفاً بالألعاب الرياضية الوحشية، فكان يطلق الوحوش و الأسود في الملاعب ليصارعها المصارعون، فإذا قتل المصارع أسداً اكتاب الإمبراطور و ظهرت عليه علائم عدم الارتياح! .. فإذا افترس الأسد مصارعه قفز (أوغسطس) في مقصورته فرحاً كالطفل، و أخذ يصفق متهللاً منتشياً!.. ثم يأمر بمكافأة الأسد الظافر بوجبة إضافية من الغذاء! (١)

أبو جعفر السفاح

عرف عن أبي جعفر، السفاح العباسي، بصرامته و قوة شكيمته، و ترجع تسميته بالسفاح إلى أن الأمويين- بعد توليه الحكم- خافوا على أنفسهم أن يبطش بهم، فتقدم إليه اربعمائة من أكابرهم و عظمائهم، ليقدموا له فروض الطاعة و الولاء. فلما مثلوا بين يديه، نهض للكلام شاعر مشهور يدعى (شبل) و ألقى قصيدة عصماء ذكر فيها أبا جعفر بما فعله هؤلاء الأمويون مع العباسيين، فتهيج أبو جعفر، و أقسم ألا يخرج أحد من هؤلاء الرجال حياً. و أمر بإحضار الجلادين لقطع رؤوسهم. فضربت أعناقهم جميعاً على مشهد منه، و هو جذلان بهذه المجزرة.

أحمد باشا الجزار

يعرف عن أحمد باشا الجزار، والي عكا، قسوته و جبروته. و كان يميل أحياناً إلى الفكاهة ترويحاً عن نفسه.. فإذا اتفق في مجلس أنه أن روى أحد خدمه نكتة بديعة، قهقه لها الجزار طرباً، و استل مدية حادة و جدع بها أنف الخادم..! و كان إذا داخله السرور من حديث إحدى محظياته صلم إذنها في الحال، ثم أجزل العطاء لها و لغيرها من أولئك الذين شوه وجوههم.

و كان للجزار خادم خاص مصلوم الأذنين، مجدوع الأنف، و كل جريمته أنه كان خفيف الدم حاضر النكتة، بارعاً في إزاحة الهم عن قلب مولاه.

١- مجلة الاثنين و الدنيا- القاهرة العدد ٧٨١ ٣٠ مايو ١٩٤٩

جان فيديل بوكاسا

الغالب أن المجنون بالعظمة، سواء أكان مخبولاً أو سليم العقل، مدفوع إلى ذلك الجنون بالعظمة بإحساس قديم بالهوان الشديد.. فنابليون كان يعاني في المدرسة من الشعور بالنقص بين زملائه الأرستقراطيين الأثرياء، فحين كان هو فقيراً يدين بوجوده في المدرسة لمنحة دراسية، هي ما نسميه اليوم بالمجانية.

فلما صار إمبراطوراً فيما بعد، سمح بعودة الأرستقراطيين المهاجرين و المنفيين، و كان هدفه الحقيقي من ذلك ليس التسامح أو الرحمة بل التمتع بمرأى زملائه السابقين المتغطرسين المتعالين عليه يركعون أمامه هم و أبناء طبقتهم.

و شب على عشق نابليون رجل اسمه (جان فيديل بوكاسا) الذي ولد في العام ١٩٢١ في بينة فقيرة جداً، والده حكم عليه الفرنسيون بالإعدام لعلاقاته مع الألمان، و والدته توفيت و هو في سن السادسة، و تلقى تعليماً بدائياً في مدارس الإرساليات.

التحق بالجيش الفرنسي عام ١٩٣٩ و حارب في صفوفه أيام الحرب العالمية الثانية و في حروب الهند الصينية. و بعد أن أثبت كفاءته العسكرية و انضباطه و تميزه عن زملائه، تمت ترقيته إلى رتبة النقيب و هي آخر رتبة وضعها على كتفه قبل أن يقود انقلابه العسكري، و نال عدة أوسمة.

و كان لحصوله على هذه الرتبة أن كلف من قبل الفرنسيين بتشكيل جيش في أفريقيا الوسطى في عام ١٩٦١ أي بعد الاستقلال، ثم أصبح رئيساً لأركان الجيش في عام ١٩٦٤ و كان يرأس البلاد (ديفيد داكو) خليفة (بوجاندا) رئيس أول حكومة وطنية في ظل الحكم الذاتي للبلاد مع بدء خطوات الاستقلال.

و في عام ١٩٦٥ كانت دولة أفريقيا الوسطى (المحبوسة) جغرافياً وسط خمس دول إفريقية، على موعد مع الأسر، لتصبح في قبضة دكتاتور لا مثيل له في العالم هو جان فيديل بوكاسا.

قدرة القادر في هذا التحول لهذا البلد الإفريقي، ليس أن الدولة توسعت بشكل أو بآخر، وليس لأنها فرضت هيمنتها على دول مجاورة، بل يعود الأمر إلى (فرمان) من عريف سابق في الجيش قام بانقلاب، و أصبح رئيساً لهذا البلد.

لم يرقه أن يكون (رئيساً مدى الحياة) و حسب، بل قرر أن يكون إمبراطوراً مدى الحياة، فصدر (الفرمان) بتحويل الدولة إلى إمبراطورية، و رئيسها إلى إمبراطور. و هكذا أصبح لقب جان فيديل بوكاسا، الإمبراطور بوكاسا الأول على مليوني نسمة هم سكان بلاده.

و منذ وصوله إلى السلطة حتى سقوطه في بداية خريف ١٩٧٩ منح لنفسه ٢٢ وساماً وطنياً و عدة ألقاب (الأب و حامي الأطفال).. (أفضل لاعب كرة قدم في العالم) .. (المهندس الأول).. (الفلاح الأول).

و جمع بالإضافة إلى لقبه كإمبراطور مناصب وزير الخارجية، و الداخلية، و الدفاع، والمالية بحيث أن ميزانية الدولة و الإيرادات و المصروفات المالية في جيبه، و بالتالي فبقية مناصب الحكومة لا تهم له. و مع ذلك لم يتجاهلها، فقد اختار بعض زملائه المقربين في الجيش و جعلهم وزراء و هم في الحقيقة أشبه بموظفي مكتبه.

في نهاية عام ١٩٧٦ بدأ يرتب لإقامة أكبر حفل تتويج إمبراطوري في العالم على نمط تتويج نابليون بونابرت عام ١٨٠٤ كإمبراطور لفرنسا. و طلب من الفرنسيين أن يصنعوا له كرسي العرش الذي جلس عليه في احتفالات التتويج، و جعلوه على شكل نسر ضخم يزن ثلاثة أطنان. وبعد أن تم شحن كرسي العرش على طائرة خاصة من فرنسا تبين أن باب قاعة التتويج لا يتسع لمرور الكرسي! و تم تعديل الباب.

و تم أيضاً تجهيز أفخم تاج مرصع من الماس و الزمرد و الياقوت و كانت أكبر ماسة في التاج تزن ١٣٨ قيراطاً و هي من أندر و أجمل قطع الماس في العالم. و خلال حفل التتويج، فعل بوكاسا ما فعله نابليون من قبل. فقد وضع التاج على رأسه و على الفور، انطلقت أصوات فتح زجاجات الشمبانيا، و كان عددها ٢٠ ألف زجاجة إلى جانب ٤٠ ألف زجاجة خمر من النبيذ، و تم أيضاً نثر ٢٠٠٠ كيلو غرام من الورود و الزهور تحت قدميه. (١)

و في عهد حكمه كانت كل الخيوط في يديه، و الشيء الطريف و المؤسف في الوقت نفسه، أنه كان يشرف بنفسه على هيئة الكهرباء، و الهدف من وراء ذلك هو أن يتحكم في تشغيلها في أي وقت، بحيث يوجه تعليماته مباشرة إلى المسؤولين بالكهرباء بأن يقطعوا التيار الكهربائي في

١- مجلة آخر ساعة- القاهرة العدد ٣٢٧٦ ٦ أغسطس ١٩٩٧ حسن صابر ص ٢٠

ساعة مبكرة من الليل، لإجبار شعبه على النوم المبكر و عدم السمر في شؤون السياسة!! و كان بوكاسا يستمد قوته و يدعم حكمه من خلال فرنسا و الولايات المتحدة. و كانت الدولتان تدعمانه إلى أبعد الحدود، خاصة فرنسا. و ربما كانت هي نفس الدولة التي تسببت في سقوطه بسبب لسانه الذي تناول فيه الرئيس الفرنسي ديستان.

و اعترف الطباخ الخاص لبوكاسا بأن الإمبراطور طلب منه ذات مرة بأن يطهو له رجلاً من وزرائه المذبوحين و الذين تم تخزينهم داخل ثلاجة خاصة. و يقول الطباخ: بمجرد أن صدر أمر الإمبراطور، أخرجت جثة الوزير من الثلاجة و قمت بحشوها بالأرز، و وضعها في (الفرن)! و في المساء جلس الإمبراطور على المائدة، و راح يتلذذ بأكل لحم الوزير المطبوخ!.

و كان قد أذيع أيضاً خلال فترة الدكتاتور بوكاسا أنه أشهر إسلامه مقابل معونة ليبية قدرها ٢٥ مليون جنيه استرليني. بل و تردد أنه بعد أن أعلن إسلامه أجريت له عملية (ختان)! وأصبح اسمه (صلاح الدين أحمد مجاهد) بدلاً من جان فيديل بوكاسا! و بالطبع لم يسلم حباً في الإسلام، بل حباً في المال. و تبين أنه يريد أن يخدع ليبيا. و بعد أن امتنعت ليبيا عن توفير المعونة لبوكاسا لرفضه تغيير الخريطة الدينية خاصة بالنسبة للوثنيين، ارتد بوكاسا النصاب عن الإسلام.

في عام ١٩٧١ احتفل بيوم الأم. مجرد تذكر يوم الأم شيء عظيم، لكن كيف احتفل بوكاسا بعيد الأم؟

هنا تكمن القصة المثيرة!

لقد أطلق سراح كل السجناء من النساء، و أعدم كل السجناء من الرجال الذين حكموا بجرائم مشينة ضد النساء. و لم يعرف أحد عدد هؤلاء الذين أعدموا ذلك اليوم.

في العام التالي، و في محاولة منه للقضاء على الجريمة في عاصمته بانغوي، أمر بأن تقطع أذن كل لص يقدم على السرقة مرتين، على أن تقطع يده إن أقدم على السرقة مرة ثالثة.

و عندما فشلت هذه الطريقة في إثبات جدواها، دعا بوكاسا الدبلوماسيين و الزوار الرسميين و العاملين في الصحافة لمشاهدة (حفل ضرب) يحضره شخصياً. و جيء باللصوص المسجونين، و قام الجنود بضربهم بالعصي و أعقاب البنادق، و بهذا الشكل العلني كانها حفلات (الجلاديا تورز) التي كان يقيمها الرومان في عهد إمبراطوريتهم. و استمر العرض لربع ساعة، كان من نتيجته أن توفي ثلاثة من اللصوص، و أصيب ثلاثة و أربعون آخرون بعاهات مستديمة.

و أثناء هذا العرض الشاذ و الغريب من نوعه، التفت بوكاسا إلى أحد الدبلوماسيين المذهولين و قال (إنه عمل قاس فعلاً لكنها الحياة!). و من جانبه، ندد كورت فالدهايم، الأمين العام للأمم المتحدة بعملية الضرب هذه، و كان رد فعل الإمبراطور قوله: إن فالدهايم قواد و استعماري. (١)

و أعاد بوكاسا نشر نفس قصص عقد نابليون التي استهلينا بها قصته و هي أن ديفيد داكو ابن عم بوكاسا الذي أطاح به في انقلاب عام ١٩٦٦ عينه مستشاره الرئيسي. و بذلك يكون داكو، أول رئيس إفريقي أطيح به يعمل مستشاراً للرجل الذي أطاح به!.

تلك هي قصة دكتاتور حاول أن يتقمص شخصية نابليون فكان أن أدى أبشع أنواع الدكتاتورية، و كاد جنون العظمة يضعه في مصحة نفسية.

عيدي أمين

عيدي أمين نموذج آخر لدكتاتور تقمص أعلى مراتب البارانويا. هوان منشأه جعله ينتقم من ماضيه التعس على حساب شعبه الفقير، فكان على أوغندا، بلده الإفريقي أن تدفع ثمن جنونه.

إنه (الحاج) عيدي أمين، أشهر حكام العالم في سبعينات القرن العشرين، ذاع صيته لأنه دكتاتور متعدد المواهب و الصفات و صاحب مبادرات مثيرة و طريفة.

فهو الرجل المؤمن الذي أدى فريضة الحج!.. و هو (زير النساء) الذي يتباهى بغرامياته العاطفية!

و هو (الملاكم) الذي يستطيع أن يحل مشاكل بلاده فوق الحلبة!.

و هو أيضاً السفاح الذي لم يخجل أن يقول: (مهمتي أن أحمي نظامي.. و أن يسقط كل من يعارضني)!..

هذا الدكتاتور من مواليد (الغابة)، عاش طفولته في الأدغال يرعى الأغنام. و عندما أصبح حاكماً لأوغندا اختار أول كانون من كل عام ليكون عيد ميلاده! و كان يقرأ و يكتب على السليقة و بصعوبة شديدة حتى و هو حاكم.

١- مجلة الصياد – بيروت ١-٨ /١٩٧٧/٩ ص ٥٧-٥٨

و باجتهاده، و ربما اعتماداً على قوته الجسمانية قبل الطلبة تدرج في الجيش حتى وصل إلى منصب رئيس الأركان. و من خلال هذا المنصب الصكري الرفيع انتهز عيدي أمين فرصة غياب الرئيس ميلتون أوبوتي عن البلاد في مهمة رسمية، فقام بانقلابه العسكري في ٢٥ كانون الثاني عام ١٩٧١، و لجأ أوبوتي إلى تنزانيا المجاورة، ليستقبل شعب أوغندة الباسل حاكماً فريداً من نوعه، دكتاتوراً يثير الضحك و السخرية و البكاء معاً!.

أول شيء فعله عيدي أمين بعد استيلائه على الحكم هو ترقية نفسه برتبة عسكرية رفيعة هي رتبة فيلد مارشال، و بعد أن حج إلى بيت الله الحرام أصبح لقبه الرسمي كالآتي : (صاحب الفخامة الحاج فيلد مارشال دكتور عيدي أمين دادا حامل وسام الخدمة الممتازة و صليب النصر)! وكان الدكتاتور الحاج عيدي سعيداً للغاية بهذا اللقب و يشعر بمتعة بالغة عندما يسمع بهذا اللقب خلال نشرات الأخبار أو في الصحف و المجلات!.

و كان الدكتاتور الأمي عيدي أمين يتصف بصفات عديدة، و رغم أنها صفات سيئة، إلا أنه كان سعيداً بها، فهو (زير النساء) مطلق الشهوات. و كانت في أحضانه أربع زوجات بالحلال في آن واحد إلى جانب مغامراته النسائية اليومية في الحرام مع الخمر و الراقصات الفاتنات ! كان يعشق النساء، و كل امرأة جميلة يقع عليها بصره يلهث وراءها و إن لم يفز بها فوراً يقتلها بطريقته الخاصة! إلى درجة أن النساء الجميلات خلال فترة حكمه الممتدة من عام ١٩٧١ حتى ١٩٧٩ كن يهربن من المكان الذي يذهب إليه حتى لا تقع الواحدة منهن فريسة لهذا الحاكم الذئب، الذي أطلق العنان لشهواته و ملذاته كما لو كان حيوان مفترساً. (١)

و عن علاقته مع زوجاته نذكر أن عيدي أمين حين تزوج من زوجته الخامسة سارة، كانت هذه (حاملاً) في الشهور الأخيرة من صديق سابق لها! و مع ذلك ما أن وضعت سارة مولودها حتى راح عيدي أمين يعلن للجميع أنه قد رزق بطفل! و ظلت سارة على صلة بصديقها هذا باعتباره والد الطفل الحقيقي. و ما أن علم عيدي أمين بذلك حتى قرر ذبح هذا العشيق أمام عينيها!

و في الوقت نفسه كانت زوجته الأولى قد هربت من بطشه إلى بريطانيا، و الثانية قتلها بعد أن أجهضت نفسها، و الثالثة نورا اختفت.

١- مجلة آخر ساعة- القاهرة العدد ٣٢٨١ ١٠ سبتمبر ١٩٩٧ حسن صابر ص ٢٨

حين وصل عيدي أمين إلى السلطة ظن الشعب الأوغندي أن الحاكم الجديد قد جاء لإنقاذهم من آلام الفقر، خاصة و أنه وعد شعبه بتحقيق الديمقراطية! و لكنه كعادة كل حاكم دكتاتور استمسك بالسلطة، و سعى إلى التخلص من كل خصومه و معارضيه و من خلال مكتب المباحث الخاص التابع له، مارس زبانية عيدي أمين شتى صنوف التعذيب ضد المعارضين. و كان زبانيته يمارسون أبشع أشكال التعذيب ضد المساجين السياسيين إلى درجة أنهم اجبروا المعتقلين على أن يأكلوا الجثث البشرية التي يتم ذبحها! و كانوا يجبرون المساجين أيضاً بأن يشربوا من الدماء البشرية إذا عطشوا!!.

و يقال إن عيدي أمين كان يأمر ضباطه في بعض الأحيان بإلقاء خصومه في النيل بعد قطع أطرافهم ليكونوا طعاماً للتماسيح. كما كان هذا الدكتاتور السكير الأول في أوغندا يقول عن نفسه إنه عراف من الطراز الأول و قادر على أن يكشف الطالع! كان يتناول خليطاً أو كوكتيلاً من الخمر يطلق عليه اسم (شراب الأسد) و بعد ذلك يقول إنه في منتهى اليقظة و الوعي و أن الوحي سيأتيه بعد لحظات! ثم يقول إنه قد أبلغ بأنه سيكون قريباً زعيماً لنصف أفريقيا ثم زعيماً للقارة كلها، حتى أنه اقترح عام ١٩٧٤ أن ينقل مقر الأمم المتحدة من نيويورك إلى كامبالا عاصمة بلاده. وذات مرة تنبأ بأن العرب سيلقون قنبلة ذرية على إسرائيل! كما تنبأ بأن الأمير تشارلز ولي عهد بريطانيا سيتزوج من فتاة سوداء و أن أمه الملكة اليزابيث ستطرده من بريطانيا.

كما كان عيدي أمين أيضاً مهرجاً لا يتعمد من خلال أقواله و تصرفاته التهريج و المداعبة، بل كان يتحدث بجدية و لكن ما كان يقوله ما هو إلا أحاديث المهرجين الذين لا يقدرون المسؤولية و يتلاعبون بمقدرات شعوبهم. و هو بهذا الشكل كان مصدر تندر للصحفيين في الأخبار التي كانوا يوردونها عنه في زوايا صدق أو لا تصدق.

إن ما شفع لهذا الحاكم أن لا يوضع في مصح عقلي هو كونه الحاكم و بيده الأمر و النهي و لو كان إنساناً عادياً لا حول له و لا طول لا عدم على جرائمه أو لبقي طوال سنوات العمر قابع في مستشفى للأمراض العقلية. فقد بلغ عدد من أعدمهم بما فيهم ضحايا حربه الفاشلة حوالي سبعمائة ألف أوغندي، و هرب عيدي أمين من أوغندا في ربيع ١٩٧٩ و ترك بلاده مفلسة تماماً بعد أن استنزف ثرواتها.

لكل شخصية دكتاتورية (بارانوايا) خاصة بها، و إن كانت قاعدتها المرضية واحدة، وهكذا يكمن الكثير من متنوعات هذا المرض.

إن الأساس العام لعلم الشخصية التحليلي النفسي هو أن يدرس بضع سمات في الشخصية كالتصعيدات أو التشكلات الارتدادية لعدد من الدوافع الغريزية التي هي جنسية في طبيعتها- و كلمة جنسية تستخدم بالمعنى الذي أضفاه فرويد عليها. إن هذا المنشأ الأصلي للظواهر النفسية من المصادر الليبيدية و تجارب الطفولة الأولى هو المبدأ التحليلي الخاص الذي أسهم به علم الشخصية التحليلي في نظرية العصاب. و لكن بينما نجد أن الأعراض العصابية و (الشخصية العصابية) هي نتيجة تكيف غير مرض من الغرائز مع الواقع الاجتماعي، فإنه بميسور المرء أن يتحدث عن سمة الشخصية غير العصابية عندما تكون الدوافع الليبيدية قد تحولت نسبياً إلى زريبة و سمات اجتماعية متكيفة- بوساطة التشـــكل الارتدادي أو التصعيد. و ما كان يقوم به عيدي أمين هو نوع من الصد و التعويض و الإنابة و الكف و التكيس و التجمد تجاه حالة من الحالات.

ديك الجن

مخيفة هي الكتابة دائماً لأنها تأخذ لنا موعداً مع كل الأشياء التي نخاف أن نواجهها أو نتعمق في فهمها. (١)

و في التاريخ العربي من قصص الحب الكثير الكثير، منه العذري و الجنسي و المثلي والشبقي و غير ذلك. و هناك دكتاتوريو الحب، يصل بهم الأمر إلى القتل و التمزيق، كما يفعل دكتاتوريو السياسة و السلطة.

إن المتهم بالقراءة النفسية للأحداث و الشخصيات باستطاعته أن يضع ديك الجن، أحد شعراء العرب في خانة دكتاتوريي الحب.

ديك الجن هو عبد السلام بن رغبان، ولد عام ٧٧٨ م و توفي ٨٥٠ م، شاعر ولد و مات في حمص، و أصله من السلمية قرب حماه، زار دمشق و لم يغادر بلاد الشام، و كان متشيعاً معتدلاً متعصباً على العرب، ماجناً عاكفاً على اللهو.

تغزل بالذكر و تغنى بالخمر، و اشتهرت مراثيه في جاريته التي قتلها لشكه في إخلاصها، و كان أحد الشعراء الذين تخرج أبو تمام على شعرهم. (٢)

١- أحلام مستغانمي: فوضى الحواس دار الآداب- بيروت ط ٣ ص١١٧

٢- محمد شفيق غربال: الموسوعة العربية الميسرة دار الشعب- القاهرة ١٩٥٩ ص ٨٣٤

و سنروي حادثة له تكفي للتعبير عن هذه الدكتاتورية. فنحن نعلم أن علاقة الحب ليست أكثر من صلة طبيعية بين ذكر و أنثى. و لكن مجموع الإثارات العاطفية و التصورات و الأفكار الممهدة و المصاحبة و الناتجة عن هذه الصلة و مستواها، هذه الصلة بدورها تختلف بين كل شخصين باختلاف مزاجهما و طبائعهما و مستواهما الروحي و اتجاههما الأخلاقي.

كان ديك الجن، أعظم الفساق بين العشاق و أغربهم أطواراً و تصرفات، و أجمعهم للقساوة و الاشتياق و أتقنهم في التهتك و الشراب، و أمهرهم في اقتناص الفرص، و أخبرهم في سبر الأعماق، و أصبرهم في الوصول إلى الغايات، و أصدقهم في الجري وراء الرغبات، و أفتاهم في علم الغرام، كما هو أفتاهم في علم الانتقام.

إن ديك الجن كان يقول لا حرام في الحب و لا محرمات، لأن غلماننا مثل نسائنا حرث لنا.. و ما ملكت إيماننا حرث لنا.. حرث لنا.. حرث لنا.

و تضيف أمهات الكتب، أن ديك الجن هذا عشق جارية و غلاماً، فاشتد بهما كلفه، و تهالك في حبهما حتى أعتاب التلف، فاشتراهما بماله و دمع العين، و أسكنهما بيته، و حبة قلبه، و استغنى بهما عن أهله و صحبه و المعارف، و اكتفى بكل عالمه بمجلس للشراب، كان دوماً ينقطع إليه، فيجلس الجارية على يمينه، و الغلام على يساره، فيلثمها و يلثمه، و يسقيها و يسقيه، ليعود فيشرب من فمها تارة، و من فمه تارة أخرى، بعض ما سقاها، و بعض ما سقاه.

و كان ديك الجن يستلذ بهذا الأسلوب في معاقرة الخمر و مكابدة الدخول في النيرفانا، ويتمادى في هذه و تلك، حتى تثور عليه لبانته، و تلح بعصفها و القصف، فيقوم ليخمدها بأكل رغيفه، مرة من وجهه الأول، و مرة من وجهه الثاني و أكثر المرات من الوجهين معاً.

و لما تقدمت به السنون، و رأى شمسه إلى أفول، و شمس صاحبته إلى صعود، خاف أن يستغلب يوماً أو يموت، فيصيران إلى بعضهما، أو يصيران إلى غيره، فهاله أمر ما تصور، و أشقته فكرته، فجن جنونه، و عزم على قتلهما، و نفذ ما عقد العزم عليه نحراً و حرقاً، فصفى الدم، و طحن الجسدين، و خلط الكل ببعض التراب، وضع حقين للخمر، كرمزين لمن قتل ليساعداه على تقطيع ما تبقى من أيام حياته.

و لما تم لـــه مـــا أراد، راح يدخل مجلس شرابه من جديد، فيضع رمز الجارية عن يمينه و رمز الغلام على يساره، فيقبل هذا و يشرب منه جرعة، و يقبل ذاك و يشرب منه جرعة، كما كان يفعل في خواليه العذاب.

إن ديك الجن لم يكتف بهذا القدر من الجريمة و الفجور، و لم يلجأ إلى التستر و الكتمان، إنما استفاد من هيبة الدولة، و انحسار سلطان القانون، وراح يتباهى بما اقترفت يداه، و يكثر من القصائد وصفاً لما أقدم عليه، حتى تكوّن له ديوان كامل يحمل اسمه. و من جملة ما قال:

يا طلعة طلع الحمام عليها — و جنى لها ثمر الردى بيديها
روّيتُ من دمها الثرى و لطالما — روّى الهوى شفتيّ من شفتيها
حكّمت سيفي في مجال خناقها — و مدامعي تجري على وجنتيها
ما كان قتليها لأني لم أكن — أخشى إذا سقط الغبار عليها
لكن ضننتُ على العيون بحسنها — و أنفتُ من نظر الحسود إليها

و إذا كانت أمهات الكتب قد أطنبت في أخبار ديك الجن و غريب أطواره، كمثال نافر للمجرمين العاطفيين في العصر الوسيط، فإن كتب اليوم أطنبت أيضاً، في أخبار أحفاده و أحفاد أحفاده، و غريب أطوارهم و تصرفاتهم. (١)

و في التحليل النفسي لدكتاتورية الحب عند ديك الجن نرى أن ما تم افتقاده عند مستوى حياته اليومية الرتيبة تم توفيره، على نحو غير مباشر، من خلال تلك التخيلات السارة من علاقة رومانسية. أو من خلال علاقة طويلة الأمد، حدثت نحو غلام و جارية تصادف أنهما كانا موجودين، أو قاما بإثارة الدافع لبدء مثل هذه العلاقة الغريبة الأركان.

ربما كان الفارق الأكبر بين العدوان و الجنس في قصة ديك الجن هو أن دافع الجنس لا يمكن حله أبداً من خلال حلول بديلة. فبينما يمكنك أن تجد شخصاً آخر كي يحارب عنك معركتك أو يقوم بالانتقام نيابة عنك، فإنك لا تستطيع أن تنيب شخصاً آخر كي يضطلع بالجنس بدلاً عنك. فالإشباع لا يتم إلا بقيامك بهذا الفعل بنفسك (و لأسباب ليست خافية عن أي شخص لديه ألفة بالبيولوجيا الاجتماعية). و بسبب هذه الطبيعة المميزة للطاقة الجنسية (الليبيدو) يكون من الصعوبة بمكان أن يوفر لنا مشاهد ما تصريفاً جنسياً مناسباً.

إن الغلام و الجارية لدى ديك الجن يمكن أن يؤثرا في استثارة حاجته الجنسية، لكن

١- المحامي الدكتور منيف حمدان: على يمين القوس الجزء الأول دار الخلود- بيروت ٢٠٠٠ ص ٢١٧-٢١٨ و ٢١٩

مشاهدة شخص آخر يصل إلى حالة النعاظ الجنسي لا يساهم إلا بالنزر اليسير في تخليص ديك الجن القائم بالمشاهدة من الاستثارة الحادثة لديه.

و في الوضع الذي كان يوجد فيه ديك الجن- و هو من تصميمه- مشاهداً خبرة انفعالية شديدة لا بد أن تحمل له عنصراً من عناصر المخاطرة. و الشيء الذي يبدو ظاهرياً مجرد تسلية قد ينقل رسالة ما.. رسالة دكتاتورية تبدو لنا في حالة ديك الجن عمادها الحب و الجنس و القتل دون روادع.

و القرار المفاجئ الذي اتخذه هذا الشاعر بقتل الغلام و الجارية مبني على حسابات مسبقة، كانت دائرتها اللاشعور، و بعد تخمر هذه الفكرة في دماغه و إعادة التفكير، ظن بنفسه أن قراره مصيب مبني على حاسة سادسة. لكن في الحقيقة كان قراره بناء على تفكير و تأمل، وصل مرحلة القتل عندما اتخذ القرار. و الحقيقة إنه استعمل عقله بكافة عناصره حتى غلب ظنه الصحة و اتخذ القرار.

نيرون

نيرون و من لم يسمع بهذا الاسم الاستبدادي الطاغي الدكتاتوري. صحيح سجل التاريخ أسماء الكثير من الطغاة الدكتاتوريين و لكن اسم لوسيس بن جنيوس دوميتيس اهنسباربس الذي سجل التاريخ سيرته بالدماء و النيران تحت اسم (نيرون) يبقى هو الأبرز في عالم الدكتاتوريين الطغاة.

و شهد و هو صغير وفاة والده، مما ترك والدته (أجريبينا) في حيرة من أمرها حتى وفقت إلى إغراء الإمبراطور (كلوديوس) على أن يتخذها زوجة، بعد أن قتل زوجته الأولى بالسم، ثم استطاعت أن تقنعه أن يتبنى ابنها هذا و ينسبه إليه، ثم يزوجه أخيراً من ابنته (أوكتافيا)، وكان نيرون حينذاك لم يتجاوز السادسة عشرة !! و هو ما طمأن قلب الأم (أجريبينا) إلى أن سبيلها لإيثار ابنها (نيرون) بالعرش دون (بريتانيكس) ابن زوجها الإمبراطور، و قد أصبحت ممهدة. و كانت تعتقد أن نفوذها على فتاها كفيل بأن يجعلها هي صاحبة السلطان و الكلمة الأولى، إذا ما وصل إلى سدة الحكم. (١)

١- اعتمدنا في السيرة الذاتية لنيرون على الكتاب التالي

1- C.M. Frazero: Nero. Pan Book, London 1951

و بقي هذا الأمل حيناً، و هي تتشاور مع (لوكستا)، و هي أدهى ساحرة برعت في تحضير السموم في روما في منتصف القرن الأول الميلادي حتى حانت لها الفرصة في سنة ٥٤ ميلادية، فدست لزوجها الإمبراطور سماً زعافاً لم يقو علم طبيبه (أكسينوفون) على إنقاذه من فتكه، فمات بنفس الوسيلة التي قضى بها على زوجته الأولى، و كانت خطتها جهنمية بحد ذاتها.

كان نيرون في السابعة عشرة من عمره حين استلم الحكم، و بدأ الفتى بداية طيبة حيث لا يبرم أمراً إلا بمشورة مربيه و معلمه الفيلسوف سنيكا، و لكنه لم يكد يبلغ رشده حتى تمرد على أستاذه، و على مستشاريه، بل على أمه: و عز على (أجريبينا) أن يتمرد عليها ابنها و هي صاحبة الفضل في تسلمه العرش، فراحت تهدده بأن تضيع عليه سلطانه، بأن ترد إلى (بريتانيكس) عرشه المغتصب. و هنا لجأ نيرون إلى لوكستا، كما لجأت أمه من قبل. و بفضل سموم الساحرة العجوز، تخلص من بريتانيكس، السيف الذي أشهرته أمه فوق عنقه! و فرح كثيراً لما أقدم عليه.

و تبع هذه الجريمة سلسلة من الجرائم البشعة، فقد انقلب نيرون إلى وحش أهلجته رائحة الدماء، فكانت أتفه ريبة تحوم حول شخص كفيلة بأن تغري الدكتاتور بالقضاء عليه! فكانت الضحايا تتتابع، و هو مغرق في اللهو و الفجور و الشرور، حتى غدت ملذاته و أهواؤه فوق كل شيء، و غدا البطش طابعاً يسم كل تصرفاته. و كان لا يفتأ يقول: إن أسلافي كانوا يجهلون حقوق السلطان، و لقد يكرهني الشعب، و لكنه سيرهبني و يخافني. و هكذا كان الإرهاب و القتل و الخوف سلاحه في حكم الناس.

و أثارت تصرفات نيرون أستاذه سنيكا فما كان من الأول إلا و قتل الفيلسوف و هجاه الشاعر (لوكان) فألحقه بالفيلسوف ثم اشتد الجفاء بينه و بين أمه فسعى حتى أوردها حتفها، و لما تنقض خمس سنوات على رفعها إياه إلى العرش.

إلى أن التقى بيوبيا، الفاتنة التي ملكت قلبه و حواسه، فلم يتردد في أن يطلق زوجته أوكتافيا من أجلها، ثم ألحق المطلقة المسكينة بأمه و ضحاياه العديدين، و بذلك خلا له الجو مع عشيقته، فتزوج منها ليغدر بها فيما بعد، مع أنها أسرت قلبه و جن جنونه بها.

و كان القدر قد بيت النية على أن يمنحها كل شيء يمكنها من أن تستوي على عروش القلوب! كانت أجمل نساء روما جميعاً، حتى لقد كانت تسدل على وجهها قناعاً إذا خرجت للنزهة على قدميها، إشفاقاً على الأبصار أن يبهرها حسن ذاك الوجه الناصع البياض، الذي توجه شعر ذهبي فاتن. و زاد من فعلها في القلوب أن اجتمع العلم و الذكاء على أن يضفيا على حديثها لباقة

و طلاوة و رقة، أخذت بها النساء قبل الرجال!. و هكذا كانت بوبيا مثالاً للفتنة التي تنهار أمامها أعتى حصون القلوب، حتى لقد سرت الهمسات في البلاط الروماني عن سحرها، و أضافت أن بوبيا منبعة غالية.

و هذا ما زاد من نيرون كلفاً بها و دفع الثمن غالياً حقاً، فقد تمثل في قتل أمه و طلاق زوجته الشابة (أوكتافيا). و غدت بوبيا عشيقة الإمبراطور الطاغية، بعد أن أقصى زوجها الثاني بأن عينه حاكماً للبرتغال، كي يخلو لهما الجو. و لم يلبث نيرون أن اتخذها زوجة، ثم مكن لها من النفوذ و السلطان ما لا قبل لامرأة به، و الواقع أن بوبيا لم تكن امرأة عادية، فقد أنفقت ببذخ في سبيل صون جمالها. كانت جدران حمامها مكسوة بالمرايا الفضية المصقولة كي تتأمل فيها كل يوم جسدها الناصع البياض، الذي اعتادت أن تحفظ لونه الفاتن بالاستحمام بلبن البغال، حتى يقال إنها كانت تصحب أربعمئة بغلة معها أينما سافرت.

و من حياة الرغد الذي عاشته بوبيا أنه كان لها حاشية كبيرة من العبيد، فالجواري الإفريقيات لتدليك جسمها، و السبايا السكندريات لاختيار الأزياء التي تناسبها و صنعها، و عبيد موكلون بجواهرها و حليها، و آخرون أخصائيون في تطريز و زركشة نعالها. و كانوا جميعاً يحيطون بها عقب كل حمام حين تجلس إلى مرآة تتأمل شعرها و تفحص الشكل الذي نسق عليه. فلقد كانت تعرف أنها أوتيت أجمل شعر توج رأس امرأة في روما.. شعر تغنى نيرون بجماله، ووصفه في أشعاره بأنه (عنبر)، و قد أوحى هذا إلى أخصائيي العطور الذين كانوا في خدمتها، بأن يستنبطوا لها من العنبر زيتاً عطرياً لشعرها.

و ما برح المكلفون بتنسيق شعرها يفتنون في عملهم، حتى لقد كانت أية تسريحة تبدو بها بوبيا لا تلبث أن تغدو موضة تتناقلها نساء روما! و كانت تثبت الجدائل العنبرية بمشابك مرصعة باللآلئ التي كانت تجلب خصيصاً لها من البحر الأحمر، لما تمتاز به لآلئ هذا البحر من جمال وبياض ناصع. أما أذناها فكان يتدلى من كل منهما قرط رصع بثلاث ماسات ترسل بريقاً يخطف الأبصار كلما حركت بوبيا رأسها أو استدارت.

و تناهبتها الأفكار عن كيفية استبقاء سحرها لدى نيرون ليظل لها ما نالت من عرش وسلطان، و كانت تعرف كيف تسيطر على عاشقها، و كيف تجعل بهاءها يطغى على بريق أية غريمة لها. و كانت بارعة في إخفاء عيوبها، و إظهار مفاتنها، و إضفاء وقدة من الأنوثة على ابتسامتها،

تلهب بها القلوب. و لم تكن تكف عن الابتكار و التجديد لتظل فريدة في مظهرها، فكانت أول امرأة في روما اتخذت ثياباً من الحرير الخالص، و أسدلت على رأسها وشاحاً طويلاً.

و اشتدت بها نرجسيتها حيث اعتادت أن تقضي الساعات الطوال، تتأمل نفسها في نظرات فاحصة، و تدرس كل حركة من حركاتها، لتصلح منها ما يعوزها الفتنة، حتى حركة أهدابها، واختلاجات جوارحها كانت تحرص أن لا تغفل عن دراستها و انتقادها، و استطاعت بالمران أن تجعل لمظهرها كل ما ترجو أن تفرضه على رائيها من تأثير و جذب.

و اكتمل شكلها مع ضحكتها التي تهز القلوب، فتخضعها للفتنة و تبعث فيها الحبور.. كل ذلك جعلها تجرب كل فنون الغواية، حتى انتهت إلى أن أقوى سحر للأنوثة يتمثل في بساطة الطبيعة، بما يصحبها من مظاهر البراءة و السذاجة و الضعف.

و رغم افتتان نيرون ببوبيا، فإنه لم يتورع إذا أغضبته ملاحظة أبدتها، و هو عائد منتش من السباق ذات يوم، عن أن يركلها في بطنها بقدمه، فإذا هي تصاب بنزيف داخلي أدى إلى موتها. وجن جنون نيرون و عصف الحزن به، و شاء أن يكرمها في وفاتها تكفيراً عن ذنبه، و تخفيفاً لأساه، فلم يسمح بحرق جسدها- كما كانت طقوس الرومان- بل أمر بتحنيطه على عادة المصريين! و أقام لها جنازاً رائعاً، تولى منه بنفسه إلقاء المراثي التي كان القوم يتلونها عادة. و ظل البخور يحرق حول تابوتها عدة أيام، ثم وريت التراب في مدفن أباطرة الرومان!.

و في كل جرائمه لم يبك نيرون إلا على بوبيا، فقد بكاها من أعماق قلبه، و ظل وفياً لحبها، تلف ذكراها لبه في غلالة عاطرة لم يقو سحر امرأة أخرى على أن ينفذ خلالها إلى ذلك القلب الذي لم يعرف اللين و الحب إلا نحو بوبيا وحدها. و رغم هذا الحب فلم يكن يتوانى عن ضربها.

و هنا توضع علامة استفهام فيما إذا أصبح نيرون مجنوناً بالقتل و التخريب، حتى ليعزى إليه أنه مدبر الحريق الذي اجتاح روما سنة ٦٤ و دام الحريق ستة أيام و سبع ليال دمر خلالها ثلثي معالمها، و قضى على أعز تحفها الفنية و التاريخية. و قيل إنه فعل ذلك لتتمثل صورة حية للحريق الذي قضى على طروادة! كما قيل إنه لم يستبشع الجرم، و لم يحفل بآلام الشعب، بل له مرأى النيران، فراح يرقبها و هو يعزف على قيثارته. فقد كان يعتقد في نفسه أنه خير من أوتي الإلهام و في الموسيقى و الشعر و التمثيل و الغناء و التمثيل و الحكم و سبل القتل.

و اتهم نيرون رعاياه الذين اعتنقوا الدين المسيحي بأنهم مدبرو الحريق، فأوقع بهم أفظع اضطهاد عرفه التاريخ و طاردهم بالتنكيل في جميع أنحاء إمبراطوريته. و كان لا بد للشعب من أن

يتحرك إزاء هذه الفظائع الجنونية، فدبرت المؤامرات، و لكنها كانت تنتهي إلى فشل يلقى بمدبريها في أتون نقمة نيرون حتى قدر في النهاية لجالبا- حاكم اسبانيا، أن ينظم ثورة ناجحة. و قضى مجلس الشيوخ على نيرون بالموت، و لكنه بادر إلى الفرار، حتى إذا أدرك أن مطارديه أوشكوا أن يلحقوا به، قضى بسيف أحد تابعيه، على حياته التعسة، التي لم تطل لأكثر من واحد و ثلاثين عاما خلد بها اسمه كحاكم دكتاتور طاغي.

إن السلطة المطلقة غير مستطاعة لإنسان و لهذا ينتهي كل محب للسلطة، إن عاجلاً أو آجلاً، إلى العذاب و الفشل، هكذا كان الحال مع نيرون، فكل ما كان يجنح إلى فعله في حالات النزوة يبدو أنه صادر عن رغبات موجودة في اللاشعور، و عن طريق اللاشعور تأتينا الميول الغريزية التي تعتبر من أهم القوى الدافعة لدى الأشخاص على اختلافهم. و العضوية الإنسانية تعتاد على بعض الأهواء التي سرعان ما تغدو طاغية مسيطرة، و هذا حق بالتأكيد، لأنه من العسير الخلاص من عادة الإدمان على الطغيان و الاستبداد، كما كان الأمر مع نيرون بعد أن ألف ذلك.

و قد كان نيرون يعاني من الانفصام إلى حد الجنون، مقروناً بالعنف و الطغيان. و قد تربى على ذلك من والدته التي علمته فن إزاحة الخصم مهما كان، حتى أقرب الناس إليه. و أخذ بهذا الرأي بعد أن مهدت له والدته، فكبر العنصر التآمري و التصفوي لديه، و لم يعد يحسب حساب أحد، حتى أمه بطش بها، و حتى مدينته أحرقها ليتفرج على النيران و هي تلتهمها، و حتى معلمه فتك به، و بزوجته الأولى، و ضرب الثانية. فالقتل أصبح لديه كشرب الماء، ليس له من حساب الضمير.. كل ذلك و لم يطش نيرون إلا زهرة شبابه وسط جثث مناوئيه.

إن نماذج نيرون كثيرة وسط عالم الدكتاتورية، فبازاحت الخصم و قتله يبدأ رويداً رويداً حتى ينتهي بالتصفيات الجماعية مهما كان عددها! عشرات، مئات، آلاف. و هذا سجل الإنسانية ماثلاً أمامنا لمئات الفظائع و الأهوال التي تعرض لها البشر من جراء حكم دكتاتوري، سواء أكان فردياً أم جماعياً.

كومودوس

كومودوس إمبراطور روماني اقترن اسمه بالدكتاتورية و البطش حيث كان مواطنوه يدنون تحت وطأة طغيان الأباطرة و بطشهم و جورهم. و حين تولى الحكم و هو ابن الإمبراطور

الفيلسوف (ماركس أوريليوس) كثرت الرذائل حتى اقترنت بحكمه هذا في الأعوام الثلاثة الأولى أكثر مما أضرت بالدولة، إذ أغرق الأمير نفسه في ملذاته، تاركاً مقاليد الأمور في أيدي مستشاري أبيه، إلى أن أقدمت أخته (لوسيلا) على محاولة اغتياله في سنة ١٨٣. و مع أن طعنتها لم تبلغ جسده، فقد قالت: إن مجلس (السينات) يبعث لك بهذه!. و من ثم انقلب الإمبراطور على المجلس التشريعي دون ما إشفاق أو رحمة! كان مجرد تمتع أي عضو بالثراء أو الفضيلة كفيلاً بإثارة ريب الإمبراطور الحاقد، كما غدا الشك بمثابة الدليل و البرهان، و صارت المحاكمة سبيلاً للإدانة و الإعدام. فسالت دماء أعضاء المجلس التشريعي أنهاراً.. بل لقد ذهب الإمبراطور في حنقه إلى حد التضحية بوزيريه (برينيس)- ليحد من غضب القوات المتمردة في بريطانيا – و (كليلندر) ليهدئ من ثورة الأهالي المتذمرين في إحدى المجاعات الرهيبة.

لم يكن لكومودس أي شعور بالفضيلة و الإنسانية، كما قضى على مكانته لدى الشعب بمباذله و مفاسده، و ظهوره في الحفلات العامة في ألعاب مستهجنة تحط من كرامته في نظر الناس!.

و حانت نهايته حين سقته إحدى محظياته كأساً من خمر أذيب فيها مخدر، ثم نفذ رئيس الحرس البريتوري إلى مخدعه فخنقه! ثم سعى المتآمرون إلى (برتيناكس) محافظ روما و أغروه على تقلد السلطان، كما اكتسبوا بالمال تأييد الحرس البريتوري. و تقبل أعضاء المجلس التشريعي في ابتهاج العاهل الجديد، فظل (برتيناكس) يحكم الإمبراطورية ستة وثمانين يوماً في حزم و اعتدال، و لكن النظام الصارم العتيق الذي أراد أن يبعثه في الجيش من جديد، أثار حقد الحرس البريتوري عليه فاغتيل في ٢٨ آذار سنة ١٩٣ (١)

أدى مقتل كومودس و من ثم برتيناكس إلى خرق الحرس البريتوري حصانة العرش، ثم قضى أفراده بتصرفاتهم التالية على كرامته و جلاله، إذ انطلقوا في جنبات روما يطنون أنهم يمنحون الإمبراطورية لمن يدفع الثمن الأكبر، فرسا المزاد على (دميريس جوليانس) الذي عرض منح الجنود مكافأة مالية لكل منهم، فتبوأ العرش، و اعترف به مجلس (السينات) إمبراطوراً.

و دهش الجنود المرابطون على حدود الإمبراطورية لهذه المزايدة و استنكروا ذلك بدافع الحسد. و تهيأ (البينس) حاكم بريطانيا، و (نيجر) حاكم سوريا، و (سبتيميس سيفرس) الأفريقي

1- Edward Gibon. History of the Decline and fall of the Roman Empire. London Pelican Book 1955 P 121

قائد أحد الجيوش للانتقام للإمبراطور المقتول، و الاستيلاء لأنفسهم على العرش. و استطاع سيفرس بالفعل أن يقضي على دفاع الإمبراطور (جوليانس) و ينهي حكمه الذي لم يدم لأكثر من ستة و ستين يوماً!.

ثم وجه جيشه ضد منافسيه الآخرين فقضى عليهما خلال ثلاثة أعوام، و وطد بذلك سلطانه. و مع أنه لم يخف عداءه للمجلس التشريعي إلا أنه حكم في حزم، و شدة، و عدل، و لطه لم يصدر في مناصرة الفقير و المظلوم عن دوافع إنسانية، بقدر ما صدر عن رغبة في الحط من كرامة الكبراء و العظماء، و الهبوط بجميع رعاياه إلى مستوى المواطن العادي.

و ما ذكرناه يعطي بعض الدلالة كيف كانت تحكم الدول برئاسة حكام دكتاتوريين لم يكن يعنيهم الشعب بشيء.

المراجع *

باللغة العربية

١- ابن خلدون، عبد الرحمن: مقدمة ابن خلدون بيروت : دار احياء التراث العربي الطبعة الثالثة

٢- إمام، عبد الفتاح إمام: الطاغية سلسلة عالم المعرفة الكويتية رقم ١٨٣

٣- أمين، قاسم: تحرير المرأة القاهرة : دار المعارف بمصر

٤- الحكيم، يوسف: سورية و العهد العثماني بيروت: دار النهار ١٩٨٠

٥- الحكيم، نظلة. و سعيد، محمد مظهر: جمهورية افلاطون القاهرة: دار المعارف ١٩٦٣

٦- الخازن، منير وهيبه: معجم مصطلحات علم النفس بيروت: دار النشر للجامعيين

٧- الخماش، سلوى : المرأة العربية و المجتمع التقليدي المتخلف بيروت: دار الحقيقة

٨- الدباغ، د. فخري: أصول الطب النفساني بيروت: دار الطليعة ١٩٨٣

٩- الدمشقي، الخوري ميخائيل بريك: تاريخ الشام ١٧٢٠-١٧٨٢ تحقيق و تقديم أحمد غسان سباتو دمشق: دار قتيبة ١٩٨٢

١٠- العظمة، بشير: جبل الهزيمة بين الوحدة و الانفصال لندن: رياض الريس للكتب و النشر ١٩٩١

١١- الكواكبي، عبد الرحمن: طبائع الاستبداد و مصارع الاستعباد في (الأعمال الكاملة لعبد الرحمن الكواكبي) تحقيق د. محمد عماره القاهرة: الهيئة العامة للكتاب ١٩٧٠

١٢- بدوي، ثروت: النظم السياسية القاهرة دار النهضة ١٩٨٤

١٣- بدوي، د. عبد الرحمن: سيرة حياتي جزآن بيروت – عمان: المؤسسة العربية للدراسات و النشر ٢٠٠٠

---

* حرصا على دقة البحث فإن أي إغفال في ذكر اسم المترجم أو اسم دار النشر أو سنة الطبع في مراجع الكتاب يتحمل مسؤوليته ناشر هذه المطبوعات

١٤- بيهم: محمد جميل: العروبة و الشعوبيات الحديثة بيروت: مطابع دار الكشاف
١٥- حمدان، منيف: على يمين القوس بيروت: دار الخلود ٢٠٠٠ جزآن
١٦- جبرا، جبرا ابراهيم: السفينة بيروت: دار الآداب ١٩٨٣ الطبعة الثالثة
١٧- حوراني، البرت: الفكر العربي في عصر النهضة بيروت: دار النهار ١٩٧٧ نقلاً عن ابن تيمية : السياسة الشرعية
١٨- حيدر، حيدر: وليمة لأعشاب البحر دار ورد: دمشق الطبعة السادسة ١٩٩٨
١٩- شرابي، د. هشام: مقدمات لدراسة المجتمع العربي الدار المتحدة للنشر- بيروت ١٩٧٥
٢٠- سويف، د. مصطفى: الأسس الفنية للإبداع الفني القاهرة- دار المعارف ١٩٥٩
٢١- عبد الواحد، د. علي: المرأة في الإسلام القاهرة
٢٢- غربال، محمد شفيق: الموسوعة العربية الميسرة دار الشعب- القاهرة ١٩٥٩
٢٣- فراج، د. محمد فرغلي: مرضى النفس في تطرفهم و اعتدالهم القاهرة الهيئة المصرية العامة للتأليف و النشر ١٩٧١
٢٤- مستغانمي، أحلام : فوضى الحواس بيروت: دار الآداب الطبعة الثالثة
٢٥- مؤلفين، مجموعة مؤلفين: أزمة الديمقراطية في الوطن العربي بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية ١٩٨٤
٢٦- مينه، حنا: الياطر بيروت: دار الآداب ١٩٧٥
٢٧- = = : الثلج يأتي من النافذة بيروت دار الآداب ١٩٧٩ ط٣
٢٨- = = : المصابيح الزرق = = = = =
٢٩- يسين، السيد: الشخصية العربية بين المفهوم الإسرائيلي و المفهوم العربي القاهرة: مركز الدراسات السياسية و الاستراتيجية ١٩٧٣

كتب أجنبية مترجمة للعربية

٣٠- ايتين، دى لابواسيه: العبودية المختارة- ترجمة د. مصطفى صفوان القاهرة ٢٠٠٠
٣١- تشو مسكي، نعوم: إعاقة الديمقراطية بيروت مركز دراسات الوحدة العربية ١٩٩٢

٣٢- جاكوب، فرنسوا: لعبة الممكنات- بحث في تباين الحي ترجمة أحمد صالح دمشق- دار الحصاد ١٩٩١

٣٣- رسل، برتراند: القوة ترجمة عبد الكريم أحمد القاهرة: مكتبة الانجلو المصرية

٣٤- = = : السلطان ترجمة خيري حماد بيروت: دار الطليعة ١٩٦٢

جرى اعتماد ترجمتي كتاب واحد و بعنوانين مختلفين للنص الحاصل في كليهما اعلاه

٣٥- دوفرجيه، موريس: مدخل إلى علم السياسة ترجمة د. جمال الأتاسي، د. سامي الدروبي دمشق دار دمشق

٣٦- ماكيفر، روبرت: تكوين الدولة ترجمة حسن صعب بيروت: دار العلم للملايين ١٩٨٤

٣٧- منس، جوليت: المرأة في العالم العربي بيروت: دار الحقيقة ١٩٨١

٣٨- موروا، اندريه: فن الحياة ترجمة أحمد فتحي القاهرة: كتاب الهلال رقم ٣٤٥

٣٩- كزنوف، جان: السعادة و الحضارة ترجمة د. عادل العوا دمشق: مطبعة جامعة دمشق ١٩٧٢

٤٠- لا كوست، ايف: العلامة ابن خلدون ترجمة د. ميشال سليمان بيروت: دار ابن خلدون ١٩٧٨ ط٢

٤١- ويلسون، جلبين: سيكولوجية فنون الأداء ترجمة د. شاكر عبد الحميد سلسلة عالم المعرفة الكويتية رقم ٢٥٨

صحف و مجلات

٤٢- صحيفة الأهرام- القاهرة ١٩٩٦/٣/٦ د. يسرى عبد المحسن

٤٣- = = = ٢٤/ ١٩٩٧/٩ د. محمد السوقي

٤٤- = = = ٢٢/ ١٩٩٨/١ غادة الشرفاوي

٤٥- = = = ٢٠٠٠/٤/٢

٤٦- صحيفة الشرق الأوسط- لندن ١٩٩٨/١/٧

٤٧- = = = = ٢٠٠٠/٥/٢ خالص جلبي

٤٨- = = = = ٢٠٠٠/٨/١ = =

٤٩- صحيفة الشرق الأوسط- لندن ٢٠٠٠/٢/٢٩ عبد المحسن العكاس

٥٠- = = = = ٢٠٠١/٤/٣٠ د. نجم عبد الكريم

٥١- صحيفة العربي- القاهرة ٢٠٠١/٤/١ محمود أحمد سعيد

٥٢- مجلة الاثنين و الدنيا- القاهرة العدد ٧٨١ ٣٠مايو ١٩٤٩

٥٣- مجلة آخر ساعة- القاهرة العدد ٣١٤١ ٤ يناير ١٩٩٥ حوار مع د. عز الدين اسماعيل أجراه مأمون غريب

٥٤- مجلة آخر ساعة- القاهرة العدد ٣٢٧٦ ٦ أغسطس ١٩٩٧ حسن صابر

٥٥- = = = = العدد ٣٢٨١ ١٠ سبتمبر ١٩٩٧ حسن صابر

٥٦- مجلة الدنيا الجديدة- القاهرة العدد السابع السنة الثالثة مايو ١٩٤٧

٥٧- مجلة المسرة- حريصا شباط السنة ١٩٩١/٥٧ برنار معلوف

٥٨- = = = حزيران = =

٥٩- مجلة الصياد- بيروت ١-١٩٧٧/٨

٦٠- مجلة المستقبل العربي- بيروت العدد ١٩٩٥/١٠ ثريا التركي و هدى زريق

٦١- مجلة روز اليوسف- القاهرة العدد ٣٦٥٥ ١٩٩٨/٦/٢٩ من حديث د. أحمد عكاشة مع منير عامر

٦٢- مجلة علم النفس- القاهرة اكتوبر ١٩٤٦ مجلد ٢ عدد٢ د. يوسف مراد

٦٣- مجلة وجهات نظر- القاهرة آذار ٢٠٠٠ يوسف القعيد

باللغة الإنكليزية

64- Anarchy, Robert Nozich: State and Utopia (New York: Basic Books, 1973)

65- De Jowessel, Bertrand (Authority: The Efficient Impercative) in : Carl Joachim Friedrich, ed, Authority, Nomos, 1 (Cambridge, mass: harvard University Press 1958

66- De Jowessel, Bertrand: Power, the Natural History of its Growth (London- hutchinson 1949)

67- Binder, Leonard, In a moment of enthusian: Political Power and the second stratum in Egypt (Chicago, 111: University of Chicgo Press, 1979

68- Braen, B.B : Development of a Theoretically- Bassed Manifest Rigidity inventory, Psychological Report

69- Franzero, C.M: Nero . London: pan Book 1951

70- English & English Dictionary. New York , Logmans 1944

71- English, H. B & english A. C: A comrehensive Dictionary of Psycho – Logical and Psychoanalitical terms, New York, Logmans 1958

72- Eickelman, Christine: Women and Community in Oman. New York . New York University Press 1984

73- Gibon, Edward: History of the Decline and fall of the Roman Empire. London. Pelican book 1955

74- Jacobson, A. C " Literary Genius and Magic Depressive Insamity" Medical record, LXXX 11 (1912) (Quoted through: Stein, m.i& Henze, sh, 1963)]

75- Lang , Eichbaum, W: The Problem of Genius. Translated by Paul, E. & Paul , C. New York 1933 (Quoted Through, Stein & Henze, S Creal and individual)

76- Monelli, Paolo: The Intimate life of mussolini. London: Pan Book 1952

77- Sellgman, Lester (leadership, Political Aspects) in: International encyclopedia of the Social sciences, 1968 Vol 9

78- Wesley, E. L: Perseverative behavior in a concept- for- nation- tash as function of manifest anxiety and rigidity, J. Abnorm, Soc. Psychol 1952

79- Wrong, Dennis Hume: Power.. its forms, Bassed and uses, Key concept in the social sciences (Oxford; Blackwell, 1979)

الفهرس

مقدمة

من السلطة السياسية إلى الدكتاتورية

توصيف لمفهوم الشخصية السياسية

السلطة السياسية

من الديمقراطية إلى الدكتاتورية

توصيف الأنظمة الدكتاتورية

سمات شخصية الدكتاتور

التصلب في الرأي

النرجسية

أمراض شخصية الدكتاتور

تعريف بأمراض الدكتاتور

البارانويا

البارانويا و العبقرية

التحليل النفسي للدكتاتورية

التحليل النفسي للبارانويا

المرأة و دكتاتورية الرجل

النظرة الدونية للمرأة

تهميش دور المرأة

شخصيات بارانوية

المتنبي

عبد الرحمن بدوي

سلفادور دالي

ابن خلدون

موسوليني

شخصيات و سادية التعذيب

الثورة الفرنسية و طائفة الدكتاتوريين

الامبراطور أوغسطس

ابو جعفر السفاح

أحمد باشا الجزار

جان فيديل فوكاسا

عيدي امين

ديك الجن

نيرون

كومودس

المراجع

من منشورات دار حسن ملص للنشر- دمشق

للمؤلف

١- التحليل النفسي للعقلية السورية

٢- المسيحيون في سوريا على عتبة الألف الثالث

٣- التحليل النفسي لشخصية الدكتاتور

SAMIR ABDOH

THE DICTATOR'S PERSONALITY PSYCHO- ANALYSIS

Hasan Malas Publishing House
P.O. Box 6174
Tel: 4419653
Fax: 4428005
Damascus- Syria

منتدى سور الأزبكية
WWW.BOOKS4ALL.NET

هذا الكتاب

الدكتاتور هو الشخص الذي يتولى جميع السلطات، سواء أكان على الصعيد السياسي أو الاجتماعي أو الديني، و يخضع الغير لسلطته، و يملي أوامره، و يعاقب من يشاء، سواء كان فرداً أم مجموعة أو أمة.

و يرى المؤلف أن في ضمير كل إنسان ميول غريزية مكشوفة أو مكتوبة للتفوق و السيطرة و القيادة، فإذا توفرت لأي إنسان ظروف مواتية و تمادى في ممارسة التجاوز، و هو في مركز السلطة الصغيرة أو الكبيرة، فإنه يتدرج ليصبح عدوانياً و ظالماً، و هي نتيجة حتمية لغياب أو تخاذل الرادع القانوني و الأعراف و التنظيمات الاجتماعية. و تدريجياً يصبح الأنسان العاقل المتواضع مشروع دكتاتور صغير في محيطه العائلي أو عمله أو في بلده حيث الفردية الطاغية و الجبرية المحتومة.

و قد أعطى المؤلف في كتابه هذا أبعاد شخصية الدكتاتور، من مروره بالبارانويا (جنون العظمة) إلى التصلب في الرأي و إلى النرجسية، حيث تتضارب أمراض شخصية الدكتاتور من البسيطة و إلى مرحلة الجنون، و في كل ذلك يصاب بحالة من الخوف تكمن داخل نفسه، و تعكس الغطرسة و الجبروت الظاهري، الكم الهائل من الخوف و الفزع المستتر، فيبدو جلياً درجة الانشقاق و التمزق التي يعيشها الدكتاتور و التي تنذر و تنبئ بالانهيار النفسي المرتقب في أية لحظ.

و في الكتاب تحليل نفسي لكثير من الأشخاص البرانويين والدكتاتوريين

الناشر

يطلب هذا الكتاب على العنوان التالي:
دار حسن ملص للنشر
دمشق- سوريا ص. ب ٦١٧٤
هاتف: ٤٤١٩٦٥٣
فاكس: ٤٤٢٨٠٠٥

7449586
$ 10.00